SUSAN HILL

THE SMALL HAND



مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:



كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

لعنة اليد الصغرى

روابة مترجمة..

سوزان هيل

ترجمة: أسماء عرفة

الفصل الأول

كانت الساعة تقترب من التاسعة، والشمس تغيب داخل كومة من السحاب الكثيف المائل إلى اللون البنفسجي عندما ضللت طريقي.. حين استدرت بالسيارة في الاتجاه المعاكس كي أعود مسافة نصف ميل إلى النقطة التي تشير إلى الاتجاهات الصحيحة مرة أخرى.

كنت قد أمضيت الأربعة والعشرين ساعة الماضية مع أحد العملاء بالقرب من الساحل، ثم قطعت طريقي عائدًا إلى لندن، لكنه كان تصرفًا أحمق من دون شك أن أغادر الطريق الرئيسي وأسير في المقاطعات الداخلية للبلدة.

أخذني الطريق فيما بين المنحدرات والتلال الشاحبة مصفرة اللون على كلا الجانبين، ثم تحول إلى امتداد مستقيم تصطف على جانبيه الأشجار حتى مفترق الطرق، كانت اللافتات التي تخبرك باتجاهات الطرق باهتة، ولم تكن هناك لافتات حديثة العهد، ولذلك عندما جاء المنعطف الأيمن كدت أن أتجاوزه؛ لأنه لم يكن هناك أي علامة على الإطلاق، فقط طريق ضيق وهضاب مرتفعة، حيث تستقر جذور الأشجار المثبتة بعمق، وتبدو كأسنان عتيقة، لكنني اعتقدت أن هذا سيعيدني في النهاية إلى الطريق الأول، ولكن الطريق بدأ يضيق، بينما كانت الشمس من ورائي تتوهج في مرآة الرؤية الخلفية، ومن ثم جاء منعطفٌ حاد تحولَ الطريقُ من بعده إلى مسار واحد، وكان المنظر أمامه مظلمًا بفعل فروع الأشجار المتدلية من فوقه.

أبطأت حركة السيارة، فهذا لا يمكن أن يكون طريقًا للعبور، وتساءلت في قرارة نفسي: هل يوجد منزلًا بهذا الطريق؟ هل

يمكنني العثور على شخص ما يرشدني إلى الطريق الصحيح؟

ترجلت من السيارة، وكانت أمامي لافتة قديمة تميل إلى اللون الأخضر، والتي تبدو صامدة بالكاد، ويقع من بعدها بيت أبيض اللون. يبدو أن شخص ما قد قام بتعليق لوحة أمامه بغير بإحكام، ولكن يمكنني استنباط الكلمات من عليها حيث تقول: (الحديقة مغلقة)، وكانت تلك الكلمات مكتوبة على اللافتة بطريقة غير منظمة.

حسنًا، إن ما توقعته أن يكون منزلًا هو منزل بالفعل، أظن أنه سيكون هناك أناس فيه.

قدت السيارة ببطء قاطعًا ذلك المسار، حيث كان أكثر انحدارًا، وجذوع الأشجار كبيرة وضخمة.

ثم، وفي نهاية الممر، خرجت من بين الأشجار، ودخلت في مساحة واسعة خالية منها، تلك المساحة التي كانت لا تزال منيرة رغم كل شيء، أما السماء فكانت شاحبة تتخذ اللون الأزرق الفضي. ولم يكن هناك طريق للعبور، بل كانت بوابة خشبية وسياج عالٍ من الشجيرات المحاطة بالأشواك والأزهار البرية.

بينما كل ما يمكن أن أسمعه هو صوت الطيور تستقر في مكانها، تغرد عاليًا على أغصان شجرة الجوز، كذلك طيور الشحرور الأسود التي تهرول ناحية الأشجار المتشابكة.

خرجت من السيارة، وعندما وقفت شعرت بأصوات العصافير تنخفض تدريجيًّا، ثم ساد صمت غير عادي، هدوء غريب شعرت خلاله كأنني شخص دخيل غير مرحب به، كان يجب أن أتراجع إلى الخلف في ذلك الوقت. كان يجب أن أعود إلى طريقي

نحو لافتة الاتجاهات وأحاول مرة أخرى العثور على الطريق الرئيسي. لكني لم أفعل، بل شققت طريقي عبر البوابة الواقعة بين الشجيرات الضخمة.

سرت بحذر، ولسبب ما حاولت ألا أحدث ضوضاء جراء إزاحتي للأغصان المنخفضة ونباتات العليق، كانت البوابة عالقة، ولهذا لم أتمكن من دفعها لتنفتح أكثر، بل كان علي أن أمرر نفسي من خلال فتحتها الضيقة، نحو المزيد من الشجيرات.. شجيرات وردية كبيرة وسياج تحمل الأشواك والأزهار البرية التي تنمو بين أشجار الزان. كان الطريق عشبيًا مكسوًا بالطحالب لكنني شعرت بالحجارة هنا وهناك تحت قدمي.

وبعد حوالي مائة ياردة، وصلت إلى كوخ متداعٍ شبه منهدم يشبه بقايا كشك تذاكر قديم، كان مصراع النافذة مغلقًا والسقف قد تعفن، كما رأيت أرنبًا ناصع البياض يتوارى بعيدًا عن الأنظار في ظلمة الشجيرات.

سرت في طريقي، حتى اتسع المسار منعطفًا إلى اليمين، حيث كان المنزل.

منزل صلب البنية يشبه المنازل في عهد الملك إدوارد، وشاهقًا به شرفة واسعة. وبعد رحلة من السير في مياه ضحلة وصلت إلى الباب الأمامي. كنت أقف في مكان يبدو أنه كان في الماضي ساحة أمامية كبيرة مُعتنى بها جيدًا، حيث لا يزال هناك بعض الحصى بين الأعشاب والحشائش، أما على يمين المنزل فكان هناك ممر نصفه معتم محجوب عن الرؤية بفعل أشجار الورد حيث توجد بوابة من الحديد. تجولت ببصري، فقد كانت السيارة تصدر أصواتًا عابرة حتى سكون المحرك.

كان يجب أن أعود في ذلك الوقت، كنت بحاجة إلى أن أكون في لندن وقد ضللت طريقي بالفعل. من الواضح أن المنزل كان مهجورًا وربما منسيًّا أيضًا، لن أجد أي شخص هنا لإعطائي التوجيهات.

لكني صعدت إلى مدخل البوابة الذي يتخذ شكلًا مقوسًا حتى أطل من خلاله، لم أتمكن من رؤية أي شيء سوى غابة تحوي المزيد من الأدغال والشجيرات والأشجار المقوسة، و مسار آخر يختفي بعيدًا في المساحات الخضراء الداكنة.

رفعت قفل الحديد البارد إلى أعلى ثم دفعته، وما كان من البوابة سوى أن علقت سريعًا فوضعت كتفي مقابلًا لها وقد تساقط الصدأ منها بعيدًا عند المفصلات، دفعتها بقوة أكبر فتحركت البوابة ببطء وهي تحك الأرض وتكشطها إلى أن فُتِحت، فعبرت من خلالها حتى أصبحت في الداخل.. داخل حديقة كبيرة ضخمة فارغة مهجورة، بينما يقودك الطريق من إحدى الجهات نحو الشرفة والمنزل.

كان يبدو مكانًا قد تُرك للهواء والطقس والرياح والشمس والأرانب والطيور، تُرك كي ينهار رويدًا رويدًا، كي يتعفن في حزن وأسف، لتتصدع الحجارة وتُحجب المسارات ثم تختفي، حتى زجاج النوافذ تُرِك للمطر والطيور لتقيم أعشاشها على السقف الذي سيغرق تدريجيًّا في نفسه، ومن ثم في الأرض.

كم كان عمر هذا المنزل؟ مائة عام؟ بعد مائة عام أخرى لن يتبقى منه أي شيء.

التفت، وكنت بالكاد أستطيع أن أرى أمامي. وأيًّا ما كانت تلك الحديقة فهي مغلقة الآن، فقد استعادتها الطبيعة وغطتها

بغطاء من اللبلاب والحشرات الزاحفة، وأثقلت كاهلها بالأعشاب، وسحبت الضوء والهواء منها بحيث لا يمكن أن تنمو سوى أكثر النباتات صلابة كي تغزو وتحتل ما حولها.

كان يجب أن أذهب، لكنني أردت معرفة المزيد. أردت أن أرى المزيد. أردت لسبب ما لم أفهمه أن أعود إلى هنا في وضح النهار لأرى كل شيء، أكتشف كل ما هو مستتر وكل ما تم إخفاؤه، وأن اكتشف لماذا أرغب في ذلك..؟

ربما لن أعود، على الأرجح.

فلو استطعت العودة إلى الطريق الرئيسي، ووصلت إلى لندن حيث شقتي المريحة، سيظل البيت الأبيض وما وجدته هنا في ذلك المساء يتبادر إلى ذهني، وقبل أن يطول الأمر سأكون قد نسيته تمامًا. وحتى لو مررت من هذا الطريق فربما لن أجده مرة أخرى.

وبعد فترة قصيرة من الوقت، بينما كنت واقفًا في سكون بعيدًا عن أي حشد في حديقة البيت الأبيض وفي هذا الربيع الناعم، حدث شيء ما.

أنا لا أهتم كثيرًا ما إذا كنت مؤمنًا بحدوثه أم لا؟ فهذا لا يهم. أنا أعلم أنه حدث فحسب، وهذا كل شيء. أعي الأمر كما أعي أنه في صباح الأمس هطلت الأمطار على حافة نافذة غرفة نومي بعد أن تركت النافذة مفتوحة قليلًا. أعلمه كما أعلم أنني حشوت عصب أحد ضروسي يوم الخميس الماضي وشعرت بألم شديد جراء ذلك عندما أيقظني ليلًا. شيء أعلم أنه حدث كما أعلم أنني تناولت قهوة سوداء في وجبة الإفطار.

أعلمه لأنني إذا أغمضت عيني الآن سأشعر به يحدث مرة أخرى، إن ذكراه حية مجسدة، يشعر جسدي بها، هذا ليس شيئًا من نسيج خيالي فقط.

حيث كنت أقف في منطقة معتمة ذات إضاءة خضراء، وفوق رأسي شعاع فضي ينبعث من القمر الذي يحتضن نجوم المساء. صمتت الطيور ولم يكن هناك أي حركة للهواء، وبينما كنت أقف شعرت بيد صغيرة تتسلل إلى راحة يدي اليمنى كما لو أن طفلًا قد حضر بجانبي في الظلام، وأمسك بها. شعرت ببرودتها حتى أصبحت أصابعها تغوص بثقة في كفي إلى أن استقرت هناك، وإبهامها الصغير وسبابتها تحتضن إبهامي، وكردة فعل أمسكت بها وظللنا هكذا لفترة، وكأن الوقت قد توقف، يد رجل ويد صغيرة جدًّا التي تمسك بها بشكل واثق مثل يد الأب وطفله. لكنني لست أبًا والطفل الصغير لم يكن مرئيًّا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني

كان الوقت بعد منتصف الليل عندما عدت إلى لندن، وكنت أشعر بالتعب، ولكن ما حدث لي كان غريبًا جدًّا وبسببه لم أستطع الخلود إلى الفراش حبل أخرجت خريطتين، وحاولت تتبع الطريق الذي سلكته بالخطأ والممر المؤدي إلى ذلك المنزل، وتلك الحديقة المهجورة، لكن لم يكن هناك شيء واضح، وخرائطي لم تكن تفصيلية بما فيه الكفاية. فقد كنت بحاجة إلى العديد من الأدوات التي يمكنها القيام بعمليات مسح واسعة النطاق لبلوغ أي أمل في تحديد موقع منزل خاص مثله.

استيقظت بعدها قبل الفجر مباشرة من نوم خالٍ من الأحلام مما جعلني أستعيد ذكرى إحساس اليد الصغيرة التي كانت تمسك بيدي. لكنها كانت مجرد ذكرى، لم تكن اليد موجودة كما حدث هناك، وأنا الآن متأكد تمامًا أنه في تلك الحديقة الغريبة كان يتواجد كل الاختلاف الموجود في العالم، حيث كان يتراءى لي في كل مرة أحلم بها، وهو ما حدث كثيرًا خلال الأسابيع القليلة التالية.

أنا تاجر كتب أثرية نادرة ومخطوطات كتابية، بل إنني في الأساس أتكلف بالبحث عن مجلدات خاصة نيابة عن العملاء، في المزادات أو في صفقات بيع خاصة، وكذلك من الوكلاء الآخرين الذين يعملون في مجال بيع الكتب على الرغم من أنني من وقت لآخر أشتري بشكل عشوائي وعادة ما يكون مع شخص واحد بعينه.

كما أنني لا أملك متجرًا، بل أعمل من المنزل ونادرًا ما تتبقى عندي الكتب لفترة طويلة جدًّا إذ إنه ليس لدي مخزن كبير من

الكتب للبيع في أي وقت لأنني أتعامل في الطرف الشمالي من السوق، وأمتلك مجلدات تصل قيمتها إلى عدة آلاف من الجنيهات. فأنا أقوم بجمع الكتب بقدر متواضع وبطريقة غير منظمة من أجل اهتماماتي الخاصة وسعادتي. لكن شقتي في تشيلسي تمتلئ بالكتب عن آخرها، حيث أقرر في كل عام جديد أن أقلص عدد الكتب التي أمتلكها إلى النصف، وفي كل عام أفشل في الالتزام بفعل ذلك، ففي مقابل كل دزينة أقوم ببيعها أو التخلي عنها أشتري عشرين آخرين.

وبعد أسبوع من العثور على البيت الأبيض، ذهبت إلى نيويورك ولوس أنجلوس. ثم انطلقت في رحلات إلى برلين وتورنتو قبل العودة إلى نيويورك من جديد، كان لدي العديد من الالتزامات الهامة ولطالما كنت مستغرقًا في إتمام مهماتي. ومع ذلك وحتى في وسط غرفة مزدحمة أو عندما أكون مع عميل أو على متن طائرة أو في فندق أجنبي وعلى الرغم من أن ذهني يكون مستغرقًا في التفكير بالمهمة التي أعمل بها فقد كان هنالك جزء صغير في نفسي يحمل ذكرى حاضرة لتلك اليد الصغيرة، كان أشبه بغرفة يمكنني الذهاب إليها للحظة أو اثنتين خلال اليوم. ولم أكن منزعجًا من هذا، بل على العكس تمامًا كنت أجده شعورًا مريحًا بشكل غريب.

إذ كنت أعلم أنه عندما تنتهي فترة سفري ونشاطاتي الحالية سأعود إليها وسأحاول فهم ما حدث لي، وإذا كان من الممكن العودة إلى ذلك المكان لاستكشافه ومعرفة المزيد عنه، اكتشاف من عاش هناك؟ ولماذا كان فارغًا؟ وعما إذا لو أنني عدت ووقفت هناك بهدوء من جديد فهل ستسعى تلك اليد الصغيرة لبلوغ يدي مرة أخرى؟

مررت بلحظة مربكة في أحد المطارات أثناء شرائي لصحيفة، حيث كان المكان متكدسًا للغاية، وبينما كنت في طابور الانتظار. أولًا وقبل كل شيء، قام أحدهم بدفعي وهو في عجلة من أمره حتى كاد أن يجعلني أطير بعيدًا. وبعد ذلك، وبينما كنت أحاول أن أستعيد عافيتي شعرت بيد الطفل تأخذ بيدي. ولكن عندما ألقيت نظرة خاطفة تيقنت بأنها يد حقيقية لطفل صغير حقيقي يمسك بي في حالة من الذعر بعد أن كاد أن يسقطه هذا المسافر المتعجل. وفي غضون ثوانٍ قليلة ابتعد عني وعاد إلى والدته. لكن شعور يده كان نفس شعور يد الطفل الآخر، ولكنه كان مختلفًا في الوقت نفسه دافئًا وليس باردًا، قاسيًا بعض الشيء وليس ناعمًا، فأنا لا أستطيع أن أتذكر آخر مرة لمست يدي يد طفل حقيقي، لكن بالطبع ستكون قد مرت سنوات على ذلك. ومع ذلك كان يمكنني التمييز بوضوح تام بينهما.

كان ذلك في منتصف شهر يونيو قبل أن آخذ راحة من السفر، حيث كنت أحيا بضعة أسابيع مربحة، ومن بين أمور أخرى قمت بتأمين كتابين نادرين من مطبعة «كيلمسكوت بريس» لعميل لي في مدينة ساسكس جنبًا إلى جنب مع الطبعات الأولى لجميع روايات فيرجينيا وولف([1]) التي تحمل توقيعها الذي كان يقبع داخل أغلفتها التي يغطيها الغبار، لقد كنت متحمسًا لوجودها، وكنت حريصًا على توصيلها بيدي إليه مباشرة، كنت أؤمن عليها جيدًا، حيث لا يمكن لأي مبلغ من المال تعويض خسارة أو تلف عناصر مثل هذه، ولذلك رتبت للقيادة بهم إلى هناك، وفي ذهني راودتني فكرة أن أترك وقتًا للبحث عن البيت الأبيض مرة أخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث

هل مر علينا شهر يونيو من قبل في مثل عظمة هذا الشهر؟

لقد مضت الكثير من الأيام في أواخر فصل الربيع ونحن الآن في بداية الأيام التي تتسم بالهواء المعتدل وتفتح الأزهار ووفرتها، والتي كنت أراها تنمو أثناء قيادتي للسيارة. وعندما وصلت إلى منزل العميل الخاص بي، كانت الحديقة خصبة لافتة للنظر، وجذور الأشجار عالية وسميكة. امتلأت الحديقة بالزهور في ريعانها الكامل كما تواجد النحل وزهورالعسل في كل مكان جنبًا إلى جنب وتخلل الهواء رائحة العشب الطازج.

لقد دعيت للمكوث في الليل وتناولنا العشاء في الشرفة التي كانت تطل على البحر من بعيد. وكان السيد «إدجار ميريمان» رجلًا مسنًّا متواضعًا في سلوكه وثريًّا إلى درجة لا يمكن حصرها، كان له افتتان خاص بالكتب والأدوات العلمية القديمة، ولديه أيضًا مجموعة من الصناديق الموسيقية النادرة التي تضفي سحرًا على الهواء ليلًا ما إن تبدأ في إصدار الأنغام الموسيقية.

كنا نتسكع في الخارج، بينما يتصاعد دخان لفائف السيجار ذات اللون الأزرق والرمادي الخاص بالسير إدجار عاليًا مما يتسبب في إبعاد الحشرات، كما تختلط تلك الرائحة النفاذة برائحة زهرة الزنبق وجذور النباتات المجاورة. جلست زوجته «أليس» معنا وهي امرأة ضئيلة الجسم لها شعر رمادي وصوت عذب وخجل يجعلها أكثر جاذبية من وجهة نظري.

وفي لحظة من تلك اللحظات، جاء الخادم ينادي السيد إدجار كي يجيب اتصالًا هاتفيًّا، وبينما أجلس برفقة الزوجة في ذلك الليل الهادئ وحيث تدور العثّات حول المصباح الكهربائي،

فكرت أن أسألها عن البيت الأبيض. هل يا ترى تعلم به؟ وهل يمكن أن ترشدني إليه مرة أخرى؟

لكنها هزت رأسها قائلة: «لم أسمع بمثل هذا المكان من قبل، كم كنت تبعد عن هنا؟».

«من الصعب معرفة ذلك، لقد كنت ضائعًا بلا أمل في العودة، أفترض أنني كنت أبعد حوالي خمس وأربعون دقيقة أو نحو ذلك؟ ربما لفترة أطول قليلًا، سلكت طريقًا فرعيًا اعتقدت أنني أعرفه ولكني لم أكن».

هناك الكثير من الطرق غير المعروفة في البلاد، ورغم أننا جميعًا نعلم طريقنا جيدًا لكن هذه الطرق تمثل مأزقًا لمن يقودون بغير حذر، لا أعتقد أنني أستطيع مساعدتك، ولكن لماذا تريد العودة إلى هناك يا سيد سنو؟

أعرف كليهما منذ حوالي أربع أو خمس سنوات، ولقد مكثت هنا معهما طوال الليل لمرة أو مرتين من قبل، لكنهم كانوا دائمًا بالنسبة لي السيد إدجار والسيدة ميريمان وأنا دائمًا السيد سنو وليس آدم. وقد كنت أفضل ذلك على الأحرى.

ولذلك ترددت في الإجابة. ماذا يمكن أن أقول؟ لقد كان المنزل المهجور قدرا من الجاذبية ناحيتي، وكذلك الحديقة المكسوة بالأعشاب، وقد وضعاني تقريبًا تحت تأثير تعويذة لذا أردت استكشافهما أكثر؟ ثم تراجعت عن الحديث لأن... كيف يمكنني أن أخبرها عن اليد الصغيرة؟

ولذا قلت لها:

«أوه، أنت تعرفين كيف تتمتع بعض الأماكن القديمة بجاذبية غريبة. وربما قد أرغب في الانتقال إلى الريف يومًا ما».

لم تقل شيئًا وبعد لحظة عاد زوجها واستئنفنا الحديث عن الكتب وعما يرغب في شرائه بعد ذلك. كان لديه أذواق متنوعة، وتطرق بالحديث عن بعض الاقتراحات غير العادية، فدائمًا ما أشعر بالتحدي من قبله وأكون على أهبة الاستعداد. لقد كان دائمًا عميلًا مميزًا لأنني لم أستطع توقع تصرفاته أبدًا.

ومن ثم تطرق بالسؤال وهو يمرر لي حاملة المشروبات: هل تعلم؟ إذا ما كان من المحتمل أن تُعرض مجموعة من الأعمال الكاملة لشكسبير أخرى للبيع؟

فكاد كأسي يتخبط بالبقية عندما استمعت إلى سؤاله.

وبعدما مر علينا قرابة النصف ساعة وكان الهواء لا يزال دافئًا، بينما جهزنا أنفسنا للذهاب إلى الداخل.

اشتعلت حماستي في نفس الوقت الذي كنت متأكدًا منه تمامًا أنه ليس من المحتمل أن تأتي مجموعة الأعمال الكاملة لشكسبير في طريقي من أجل السير إدجار. لكن حتى مجرد الحديث حول هذا الموضوع جعلني أفكر في ثروته من منظور جديد تمامًا.

وبينما كنت أتمنى له ليلة سعيدة، قالت السيدة ميريمان فجأة: «أعتقد أنني حصلت عليها يا سيد سنو، أعتقد أنني أملك الجواب، فقط أعطني لحظة إذا أردت».

وخرجت من الغرفة وسمعت خطاها وهي تصعد الدرج وتبتعد في أعماق المنزل، فجلست على مقعد منخفض بجانب النوافذ الفرنسية المفتوحة حيث كان المصباح بالخارج تفوح منه رائحة الزيت وكانت السماء مليئة بالنجوم.. ثم سألت بصوت خفيض: «من أنت؟» لأنه كان لدي إحساس غريب بوجود شخص معي

لكن بالطبع لم يكن هناك أحد. كنت وحدي وكان المناخ هادئًا وساكنًا.

وفي النهاية، عادت تحمل شيئًا وتقول: «أنا آسفة جدًّا على التأخير يا سيد سنو. الأشياء التي نبحث عنها، دائمًا ما تختفي من أمامنا لكن أعتقد أن هذا قد يساعدك. لقد تذكرت ذلك حيث كنا نجلس هناك بعد العشاء، ذلك المنزل الذي أطلقت عليه البيت الأبيض، لم أتعرف عليه في البداية لأنه يُعرف دائمًا باسم (منزل ديني) بالنسبة للجميع محليًّا، إنه على بعد حوالي عشرين ميلًا من هنا ولكن في داخل البلدة كما تعلم».

ومن ثم جلست.

فقلت لها: «لم يكن عليكِ أن تنشغلي كثيرًا بالأمر، كانت نزوة عابرة، لا أعرف تمامًا لماذا كان لها هذا التأثير علي».

«هنالك مقال حول هذا الموضوع في هذه المجلة. إنها قديمة نوعًا ما. نحن نحتفظ بالكثير من الأشياء ولدينا عدد كبير من هؤلاء. أصبح المنزل معروفًا باسم منزل ديني لأنه ملك لديني بارسونز. هل سمعت الاسم من قبل؟».

أشرت برأسي نافيًا.

فقالت: «ياللعجب.. كيف تتداعى الأشياء بهذه السرعة! ستجد كل شيء عن ديني بارسونز والحديقة هنا».

وأعطتني نسخة قديمة منذ حوالي أربعين عامًا من صحيفة كانتري لايف وهي تقول: «حدث شيء هناك ولكن تم التغافل عنه، وأنا لا أعرف أكثر من ذلك، إنني أشعر بالخوف.. يمكنك البقاء كما أنت يا سيد سنو، ولكن إذا سمحت لي فأنا سأخلد إلى الفراش الآن».

خرجت إلى الشرفة للحظات القليلة الماضية حيث استقر كل شيء طوال الليل وكانت النجوم متألقة واعتقدت أنه يمكنني سماع صمت البحر الخافت وهو ينحني على الشاطئ.

جلست في غرفة نومي بجانب نافذتي المفتوحة التي تفوح منها الرائحة الطيبة للحديقة فتجلبها إلى الداخل، ثم قرأت ما أحضرته السيدة ميريمان من أجلي.

كان المقال يدور حول حديقة رائعة ومهمة تم إنشاؤها في البيت الأبيض من قبل (السيدة دينيسا) التي تُعرف دائمًا باسم (ديني – بارسونز) كما احتوت على صور للسيدة صاحبة الحديقة، وهي تتجول في المروج وتشير إلى هذه الشجيرة أو تلك، وتنظر إلى بقية الأشجار.. كانت هناك أيضًا واحدة من تلك الصور الشخصية بالأبيض والأسود المشهورة في مثل هذه المجلات للسيدة بارسونز في فستانها ذي الطبقتين ومجوهراتها، حيث تحمل عددًا قليلًا من الزهور الزرقاء بشكل مرتب إلى حد ما كما لو كانت غير متأكدة ما إذا كان يجب تركها أم لا؟ وبنظرة سريعة عابرة تبدو لك هشة خالية من أي مشاعر، لكني تمكنت من رؤية أن بداخلها امرأة جميلة ذات سمات حادة.

بدت القصة مباشرة، حيث أصبحت تلك السيدة أرملة بشكل مفاجئ عندما كان طفلاها في التاسعة والحادية عشرة من عمرهما، وقد قررت الانتقال من ضواحي المدينة إلى الريف، وعندما عثرت على البيت الأبيض كان خاليًا وما حوله أرض مقفرة مكسوة ببعض الأعشاب، والتي صنعت منها تدريجيًا كما ذكر في المقال المُبجل واحدة من أعظم حدائق العصر.

ثم جاء به وصف دقيق للمسارات والطرق وحدائق المسارح والحدائق المطلة على البحر والنوافير والشلالات وحدائق الغابات القابعة بجانب الأنهار الصغيرة المتدفقة مع مجموعات الأزهار والشجيرات والترسيمات الزراعية والرسوم البيانية إضافة إلى ثلاث صفحات من الصور.

من المؤكد أنها بدت رائعة للغاية، لكنني لست بستانيًّا، ولم أكن لأطلق أحكامًا على مدى أهمية حديقة السيدة بارسونز.

أصبح المكان معروفًا بشكل جيد. وقام الناس بزيارته ليس فقط من أميال بعيدة وإنما من بلدان أخرى. وفي الوقت الذي كُتب فيه المقال كان المكان مفتوحًا يوميًّا من الأربعاء إلى الأحد مقابل رسم دخول قدره شلن وست بنسات.

وعندما استأنفت القراءة، أصبح الكلام غير ممتعًا، فتخطيت بعض الفقرات التي تتحدث عن البستنة، لكنني أردت معرفة المزيد. أردت أن أعرف ماذا حدث بعد ذلك. فقد وجدت السيدة بارسونز منزلًا شبه مهجور في وسط غابة، بينما المنزل في الصور يبدو جميلًا ومنظمًا بشكل جيد حيث جمعت الحصى وجزّت العشب إلى جانب الطلاء الجديد والنوافذ المفتوحة والتي تتطاير من إحداها ستارة باهتة في الطابق العلوي على نحو لطيف بفعل النسيم.

لكن دورة حياتهم قد مرت. فعندما وجدت المنزل والحديقة كانا يبدوان مهجورين ومضمحلين مرة أخرى، وقد حدث هذا للعديد من المنازل الريفية في السنوات التي تلت الحرب مباشرة لكنه أصبح أمر غير شائع الآن.

لم أكن مهتمًّا بروائع الحدود العشبية والأرصفة الجيرية، فقد كان المنزل جميلًا في الصور، لكنني عندما رأيته وجدته فارغًا وشبه مهجور للرياح والمطر والطيور التي غصت فيه؛ فبدا كأنني لن أبلغ فيه مكانًا مشمسًا ومقبولًا أبدًا.

وضعت المجلة على الطاولة، فالأشياء تتغير بمرور الأيام، أعتقد أن الوقت يؤدي عمله في المنازل، يتم هجرها وأحيانًا تستعيد الطبيعة ما حاولنا صنعه من أجل أنفسنا، كان البيت الأبيض والحديقة قد بعثوا من جديد، وبقوا لوقت كاف في الشمس لكن يومهم المشرق قد انتهى الآن.

ثم عندما أطفأت المصباح، واستلقيت مستمعًا إلى صوت البحر الهادر، علمت أنني سأضطر إلى العودة، فقد كان عليَّ معرفة المزيد، لم أكن مهتمًّا كثيرًا بالحديقة والمنزل لكنني أردت أن أعرف عن المرأة التي عثرت عليه وأنقذته، فيبدو أن كل شيء يفلت من تحت براثنها مرة أخرى. لكن الأهم من ذلك كله بالطبع، أنني أردت العودة بسبب اليد الصغيرة.

هل وقفت ديني بارسونز هناك في الغسق المتجمع تنظر إلى المنزل الفارغ المحاط بتلك الأرض الخضراء، وبينما كانت تضع خططًا حياله، شعرت هي الأخرى أن اليد الصغيرة غير المرئية تتسلل إلى يدها؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع

لم يحدث أي شيء آخر له علاقة بعائلة آل ميريمان أو تلك البقعة من العالم الذي يعيشون فيه، ومنذ أتيت إلى البيت الأبيض من عدة أسابيع كانت تجارتي تمر بفترة كساد.. يحدث ذلك في كثير من الأحيان، ولا ينبغي أن يزعجني، ولكن بعد مرور وقت قصير دون أي طلبات من العملاء أو مكالمات هاتفية حول الكنوز المحتمل العثور عليها من الكتب، أصبح شخصًا عصبيًّا وسريع الانفعال. وإذا استمر هذا الكساد لفترة أطول فأبدأ في التساؤل عما إذا كنت سأضطر إلى بيع بعض من كنوزي الخاصة القليلة مقتنعًا بأن المجال قد توقف عن العمل ولن أعود لنشاطي مرة أخرى. وفي كل مرة يحدث ذلك أذكر نفسي أن الأشياء لم تفشل أبدًا في العودة إلى نصابها، ولكني لا أبدو كشخص قادر دائمًا على التعلم من التجربة.

لم أكن عاطلًا عن العمل تمامًا بالطبع، بل قمت ببيع وشراء مجموعة كاملة أو مجموعتين من تشكيلات المكتبات، بما في ذلك الإصدار الأول من توماس هاردي، وتساءلت أيضًا عما إذا كنت سأستجيب لطلب جامع كتب أمريكي بأن أعثر له على مجموعة كاملة من إصدارات جيمس بوند الطبعات الأولى في أغلفتها التي يغطيها الغبار وبسعر معقول، إن هذا ليس مجال عملي، لكنني بدأت أسأل عنه بطريقة غير رسمية مع العلم أنني ربما كنت التاجر رقم مائة الذي طلب منه الرجل العثور على تلك الكتب وربما من يمتلك احتمالية أقل لاكتشافها.

بدأ الصيف يتلاشى، وكانت لندن فارغة حتى فكرت في غير حماس في زيارة بعض الأصدقاء في سياتل، ثم حدث شيئان في

نفس اليوم.. فقد تلقيت في البريد مظروفًا يحتوي على بطاقة وقطع من جريدة قديمة.

«السيد سنو، عثرت على هذه القصاصة عن المنزل، منزل ديني، الذي مررت عليه بالصدفة عندما ضللت الطريق إلينا في يونيو. اعتقدت أنك ربما لا تزال مهتمًّا لأنها تخبرك بقصة قصيرة. أنا متأكدة من أن هناك المزيد، وإذا تذكرت أو قرأت عنه مرة أخرى فسأعلمك بذلك. لكن من فضلك تخلص من هذا إذا لم يعد ذا فائدة بالنسبة لك.. مجرد رأي».

كامل إخلاصي، أليس ميريمان.

تناولت فنجانًا ثانيًا من القهوة، والتقطت تلك الجريدة الباهتة، كانت هناك صورة لامرأة وقد تعرفت عليها، دينيسا بارسونز، تقف برفقة شاب بجانب بركة ماء كبيرة مزخرفة، وفي وسط البركة كان هناك تمثال من البرونز ينظران إليه بطريقة مصطنعة قليلًا في جميع الصور التي تم التقاطها. كان التمثال لصبي يلعب مع دولفين وكرة ذهبية، ويظهر بشكل جميل من بين سطح المياه الراكدة، حيث كانت هناك زهرة زنبقة الماء([2]) أو اثنتين. أو ربما كانت هناك بعض الأسماك ولكن لم يكن أي منها مرئيًّا.

كان الخبر موجزًا، تم إنشاء التمثال بتكليف من دينيسا بارسونز تخليدًا لذكرى وفاة حفيدها جيمس هارو الذي غرق فيما جاء وصفه على أنه «حادث مأساوي». أما الرجل الذي يقف برفقتها فهو النحات، ولم يكن اسمه مألوفًا بالنسبة لي، ويتواجد التمثال في مكانه في حديقة البيت الأبيض الشهيرة عالميًّا للسيدة بارسونز، وهذا كل شيء باستثناء بعض الأسطر الإضافية عن أعمال النحات الأخرى.

نظرت إلى الصورة لبعض الوقت لكني لم أتمكن من قراءة أي شيء من وجوههم بابتساماتهم التي تعكس استمتاعهم إلى حد ما، وعلى الرغم من أن التمثال بدا ساحرًا بالنسبة لي لكني لست ناقدًا فنيًّا.

وضعت قطع الجريدة في درج مكتبي، وأرسلت بطاقة شكر بريدية للسيدة ميريمان، ثم نسيت الأمر برمته؛ لأنه في نفس البريد وصلت رسالة من صديق قديم في مكتبة بودليان يخبرني أنه يعتقد أنه يمتلك أخبارًا عن الأعمال الكاملة لشكسبير التي يمكن عرضها للبيع إذا كنت أرغب في التواصل بشأنها...

وبعد خمس عشرة دقيقة، كنت في سيارة أجرة في طريقي إلى محطة بادينغتون للحاق بالقطار التالي إلى أكسفورد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس

لم يتسنَّ لي الحصول على استراحة غداء طويلة لمدة خمس سنوات! ولذلك سأفعلها اليوم.

لم يفاجئني أمر كهذا من قبل، فلقد عرفت عددًا لا بأس به من أمناء المكتبات في جميع أنحاء العالم، أمناء المكتبات الكبرى وأصحاب المناصب العليا أيضًا، ولكن لم يسبق لي وأن فاجأني أحدهم بدعوة محتملة كي أتناول معه وجبة غداء طويلة، أو حتى تناول أي وجبة غداء على الإطلاق. تلك لم تكن طريقة تعاملهم، ولذلك كنت مسرورًا عندما اقترح «فيرجوس مكريدي» وهو رجل عالي المقام في بودليان، أن نسير من هناك حتى نتناول الغداء في فندق «أولد بارسونيدج».

كان يومًا دافئًا ومشرقًا، وكانت أكسفورد مزدحمة كما هو الحال دائمًا. ولكن في أغسطس يختلف نوع الحشد، حيث تمتلئ بمجموعات السائحين التي تسير خلف مرشدهم والذي يحمل بدوره مظلة حمراء أو قبعة موضوعة على عصا حتى لا يفقد أيًّا من متعلقاته الشخصية، كما يحل طلاب مدارس اللغات محل الطلاب الجامعيين على الدراجات. وفيما عدا ذلك، فإن أكسفورد هي نفسها أكسفورد. فأنا أستمتع دائمًا بالعودة إلى مدينتي القديمة بالرغم من أنني لا أمكث فيها أكثر من يومين، حيث إن أكسفورد لديها طريقة تجعل المرء يشعر بأنه صار كبيرًا في السن. أما عن فيرجوس فلا يبدو عليه العمر أبدًا. فلا يبدو كبيرًا وكأنه سيظل عندما يكون في التسعين مثلما كان في اليوم الذي قابلته فيه، عندما كنا في الثامنة عشرة من عمرنا، وفي الأسبوع الأول لنا في باليول.

لم يغادر أكسفورد من قبل ولن يغادر أبدًا. فقد تزوج من معلمة جامعية تدعى هيلينا، وهي خبيرة عالمية في بعض جوانب الفن الإسلامي القديم، ويعيشان في منزل صغير نظيف في ممر قبالة طريق «وود ستوك» السفلي ويقضون عطلاتهم في بلدان، مثل الأردن وتركستان. ليس لديهم أطفال، ولكن إذا كان لديهم أطفال، فسيكون هؤلاء الأطفال مثلما يكون العديد من أطفال أكسفورد الأكاديميين، وكأنهم يولدون كبارًا في السن.

لم أر فيرجوس منذ عامين. وقد كان لدينا الكثير لنتحدث بشأنه خلال طريقنا لتناول الغداء وفي وقت لاحق أيضًا، بينما استمتعنا بأول كأس من النبيذ على طاولتنا الهادئة في غرفة الطعام المريحة في فندق «أولد بارسونيدج»، ولكن عندما وصلت أطباق السلطعون المطهية في الأطباق سألت فيرجوس عن رسالته.

«كما تعلم، لدي عميل جيد للغاية والذي وضع أمامي بعض التحديات الصعبة في السنوات القليلة الماضية. وعادة ما أجد ما يريده فإنه جامع كتب واسع المعرفة. ولمن دواعي سروري أن أعمل معه».

«ليس من هؤلاء الذين يطلبون منك الحصول على أي شيء طالما أنه يكلف الكثير إذًا».

«بالطبع لا. فأنا ليس لدي أي فكرة عن مقدار ثروته، أو كيف قام بجني أمواله، لكن هذا لا يهم الآن، اسمعني يا فيرجوس، إنه رجل يحب كتبه وقارئ للكتب قبل أن يكون جامعًا لها، إنه يقدر ما أجده له. وأعلم أنني يجب أن أسعى لكسب لقمة عيشي

والمال يظل مالًا، لكن هناك بعض الأشياء التي بالكاد يمكنني أن أجبر نفسي على العمل من أجلها».

لقد كنت أعني ذلك. فقد مررت بعامين مروعين بسبب ملياردير روسي يعمل في النفط، والذي كان يريد الحصول على أي كتاب فقط إذا تم الإعلان عنه على أنه نادر جدًّا وغالي الثمن للغاية، ولم يهتم حتى باستلام ما اشتريته من أجله، وقد ذهب كل شيء مباشرة إلى مخزن البنك.

«عميلك يرغب في مجموعة الأعمال الكاملة لشكسبير إذًا؟».

كانت شرائح اللحم البقري النادرة الخاصة بنا تقدم باردة مع سلطة البطاطس الطازجة ونبات الهليون([3]) من حولها، بينما طلبنا كأسًا ثانية من النبيذ.

«لقد أخبرته أن ذلك أمرًا مستحيلًا إلى حد ما، وأن جميع الكتب في المكتبات».

فقال فيليكس: «لدينا ثلاثة في المكتبة، ومكتبة فولجر شكسبير لديها حوالي ثمانين. وقد اشترى موقع «جيتي» واحدة قبل بضع سنوات بالطبع، ثم تم بيعها بواسطة إحدى كلياتنا».

«نعم، أعلم ذلك يا له من عار».

هز فيليكس كتفيه وهو يقول: «لقد احتاجوا إلى المال أكثر من الكتاب، أستطيع تفهم ذلك. فقد باعت مكتبة خاصة صغيرة في لندن تحوي مجموعة لاهوتية بشكل رئيسي، وهي مكتبة الدكتور ويليامز، نسختها في عام أو نحو ذلك مقابل مليونين ونصف. وهذا يوفر المال لبقية مجموعتهم ويحفظها للمستقبل المُتنبَّأ به، إنها مسألة موازنة شيء مقابل آخر».

«إذا كان لديك مجموعة الأعمال الكاملة لشكسبير هل تبيعها؟»

ابتسم فيليكس: «الشيء الذي أفكر في أنه من المحتمل أن يصبح معروضًا للبيع لا يخصني. ولا يعود إلى بودليان أيضًا».

«ظننت أن كل نسخة من المائتين وثلاثين، أو نحو ذلك قد تم تقديم بيان عنها؟».

«نعم، جميعها تقريبًا. كان يُعتقد لعدة سنوات أنه باستثناء كل تلك الأعداد المسجلة في المكتبات والكليات والقليل في أيدي القطاع الخاص أنه هناك ملف «الأعمال الكاملة» آخر في مكان ما في الهند. ولكن عن طريق الصدفة تقريبًا، ومن خلال متابعة بعض العملاء المحتملين أعتقد أنني اكتشفت أن الأمر ليس كذلك».

ثم وضع لنفسه المزيد من السلطة، وكانت الغرفة قد امتلأت فنظرت إلى الجدران التي كانت تصطف بمجموعة متنوعة غير عادية من الصور والزيوت والألوان المائية، خمس منها في أماكن لم يكن أي منها ذا أهمية كبيرة، ولكن كل واحدة تتمتع بسحر خاص، مما أضفى الكثير على تلك الغرفة الجميلة بشكل كبير.

قال فيرجوس: «تم ذكر مسألة تلك المجموعة أمامي بشكل عابر، حيث كان زميلي الألماني يرسل لي بريدًا إلكترونيًا بشأن شيء مختلف تمامًا والذي كنا نحاول تعقبه لفترة طويلة، مخطوطة من العصور الوسطى في الواقع. وفي سياق محادثة أجريتها مع (ديتر) زميلي قال شيئًا مثل: «إنهم لا يعرفون نصف ما يمتلكونه بالفعل، بما في ذلك ملف شكسبير الأول».

قلت: «هم؟»

فنهض فيرجوس: «هل نحتسي قهوتنا على الشرفة؟ أرى الشمس قد أشرقت مرة أخرى».

كنا جالسين على طاولة تحت مظلة كبيرة محميين إلى حد ما من ضوضاء حركة المرور العابرة على طريق بانبري، وكانت القهوة رائعة من الدرجة الأولى.

أخذ فيرجوس ثلاث رشفات من الإسبرسو خاصته وقال: «هل سمعت من قبل عن دير القديس ماثيو دي إيتوال؟».

«لم أكن أعلم أنه كان هناك مثل هذا القديس».

«لا يوجد عنه الكثير. إنه غامض للغاية على الرغم من وجود كنيستين في فرنسا مخصصتين له، لكن على حد علمي هناك دير واحد فقط يحمل اسمه. إنه يتبع الطائفة السيسترسية، له مناخ منغلق وصامت وبعيد جدًّا بالفعل يشبه إلى حد ما دير «لا جراند تراب» مرتفع بين الجبال والغابات في فترته الصغيرة من الزمن، وفي فصل الشتاء يمكن الخروج منه تمامًا حيث توجد قرية على بعد حوالي ستة أميال لكنها بعيدة كل البعد عن معالم الحضارة التي يمكنك الوصول إليها في أي مكان في أوروبا الغربية. أوه، كما أنه يحافظ على تقليد الموسيقى المقدسة الرائعة. فيزوره عدد قليل من الناس من أجل الموسيقى، للجوء إليه كملاذ كما يعد الدير على اتصال بشكل مدهش مع ما قد تسميه عالمنا».

قلت: «معظمهم هكذا».

«أعرف واحدًا في جبال الأبالاش بعيدًا تمامًا، لكنهم يتواصلون عبر البريد الإلكتروني».

«عندما تفكر في الأمر، فإن البريد الإلكتروني الصامت يناسب القواعد في الدير أفضل بكثير من الهاتف، بالعودة لحديثنا، فمنذ عامين كان من حسن حظي زيارة القديس ماثيو، حيث كان لديهم واحدة من أرقى وأقدم وأفضل المكتبات الرهبانية المحفوظة في العالم. وإحدى الطرق التي يكسبون بها رزقهم هي إعادة تدوير الكتب للمكتبات الأخرى. ولقد استغللنا مهاراتهم من حين لآخر. بالطبع تتساءل ما علاقة كل هذا بك؟ هل تريد المزيد من القهوة؟».

طلبنا القهوة وكانت الشرفة فارغة الآن مع اقتراب موعد الغداء.

«هذا الدير، مثله مثل كثيرين بحاجة إلى نقود لعمل إصلاحات بداخله؛ لأنه عندما يعود تاريخ المبنى الخاص بك إلى القرن الثاني عشر بالطبع تبدأ الأشياء في التآكل. كما أنهم ليسوا أثرياء، والعمل الذي يقومون به يعينهم على الاستمرار، ولكن دون أن يتبقى أي شيء إضافي. إنهم بحاجة ماسة إلى إصلاح اللوحات الجدارية للكنيسة، وسقف منزل (الفصل الكبير) وعلى الرغم من أنهم سيؤدون بعض الأعمال بأنفسهم، فإن الرهبان لا يستطيعون القيام بكل ذلك، ليس لديهم المهارات بالإضافة إلى أن الكثير منهم في السبعينيات من عمره وما فوق. ولذلك بعد قدر كبير من الصعوبة حصلوا على إذن لبيع واحد أو اثنين من الكنوز، وبشكل أساسي العناصر التي ليس لها سبب كبير لوجودها، والتي تتواجد على نحو غير معتاد في الدير السيسترسي. فعلى سبيل المثال، وعلى نحو غير معتاد أيضًا لديهم عنصر أو اثنان من العناصر الإسلامية القديمة.

«آه وهنا تظهر هيلينا في الصورة».

«نعم أنت محق، وكذلك نحن. فلديهم زوجان من مخطوطات العصور الوسطى، على سبيل المثال «ألفريك وجيلبرت من هويلاند([4])».

وبخصوص كل منهما، كان يُعتقد أن هناك نسخة واحدة أو نسختين فقط موجودة في العالم، ولكن تبين أن القديس ماثيو كان لديه نسخ رائعة».

إنهم يحتاجون فقط إلى بيع بعض الأشياء لدفع ثمن جميع إصلاحاتهم وإعادة البناء وامتلاك شيء مضمون لتحمل النفقات في المستقبل. كما أنهم معرضون جدًّا لأضرار الطقس هناك بصرف النظر عن أي شيء آخر. إنهم بحاجة إلى حماية أنفسهم من فصول الشتاء القاسية في المستقبل.

«من غير المعتاد أن يتم طرح عناصر مثل هذه في السوق، فيرجوس. ماذا لديهم أيضًا؟ تجعلني أرغب في ركوب الطائرة التالية إلى هناك».

فرفع يده مقاطعًا: «لا، السوق هو بالضبط ما لا يريدونه أن يعرف عن أي من هذا. لقد قاموا بالاتصال بنا تحت نطاق السرية التامة. ليس من المفترض أن أتحدث معك ولذلك سأكون ممتنًّا إذا لم تقل شيئًا بدورك».

لقد ثبط عزيمتي، لماذا يخبرني إذا ما كانت يدي ستصبح مكبلة تمامًا مثل شفاهي؟

نظر إلي فيرجوس بذكاء: «لا تقطب جبينك، فأنا لم أذكر هذا لأي شخص ولا أنوي ذلك؛ لأنه بصرف النظر عن أي شيء لن يكون هناك فائدة. لكن الأمر هو أن لديهم ملف شكسبير الأول الذي كان من المفترض أن يكون في مكان ما في الهند. ولم يتم

الالتفات لوجوده بشكل صحيح مطلقًا وأعتقد أنه لم يكن في الهند على الإطلاق، ولكن في دير القديس ماثيو دي ايتوال».

«كيف حصلوا عليه بحق السماء؟»

هز كتفيه: «من يعرف؟ لكن في الماضي عندما دخل الشبان الأثرياء الدير كمرشدين كانت عائلاتهم تعطي نوعًا من المهر أو الصداق، وكان أحيانًا يتخذ شكل كنوز فنية وكتب نادرة وما إلى ذلك، بالإضافة إلى أموال. ربما هذا ما حدث في هذه الحالة».

«هل يعرفون حجم ما لديهم؟»

«بكل تأكيد، إنهم ليسوا أغبياء ولا يتسمون بالبراءة، وهم بالتأكيد ليسوا ممن يمكنك خداعهم. أنا أعلم أنك لن تفعل ذلك يا آدم، لكن تجارتك مفتوحة للدجالين والمحتالين مثل غيرها».

«تعجبني الطريقة التي تسميها بها! تجارتي».

قال فيرجوس مبتسمًا: «أوه، لا تنظر إلي، فأنا مجرد أمين مكتبة بسيط».

«لقد أطلت في ساعة غدائي بما يكفي. هل ستعود إلى المدينة؟»

قام بدفع الفاتورة وخرجنا من البوابة، وبدأنا نسير نحو سانت جايلز.

قال فيرجوس: «كل ما في الأمر هو أن بعض العناصر التي يعزمون على بيعها ستذهب إلى أمريكا، فنحن ببساطة لا نملك المال في هذا البلد. إنني أتحدث بالفعل إلى اثنين من المتبرعين اللذين لديهما الإمكانية من القطاع الخاص، لكني لا أملك الكثير من الأمل، فإن العالم بأكمله يتواصل معهم، فلماذا سيرغبون في

إعطائنا مخطوطة واحدة لا تقدر بثمن من العصور الوسطى، بينما يمكنهم الاستفادة في بناء جناح لمستشفى أو تقديم وقف مالي في البحث الطبي؟ فأنا لا ألومهم. ولقد حصلنا بالفعل في المكتبة على تلك المسودات الأولى، وكذلك المكتبات الأخرى، حيث لم يعد أحد منا بحاجة إلى آخر. لكن هل لديك عميل يفترض أنه يمكنه تحمل ثلاثة أو أربعة ملايين للحصول على ما يريد؟».

«لم يكن ليذكر لي أمرًا كهذا أبدًا إذا لم يكن يعرف مدى احتمالية أن أحصل عليه، وكم قد يكلفني ذلك إذا فعلته، وما إذا كان يستطيع تحمل ذلك، إنه رجل نبيل».

«آه، إنه أحد هؤلاء. هل تريد أن أتواصل مع الدير، وأن أطرح سؤالًا أو سؤالين في تحفظ؟ لن أذكر اسمك أو أي شيء من هذا القبيل، وسأضطر إلى التحرك لأجل ذلك، أعتقد أنني أملك طريقهم الآن، لكن لا أريد أن أتعجل وإلا ستنهار الصفقة».

«وسوف يذهبون إلى مكتبة هنتنغتون في لحظة».

صمت فم فيرجوس قليلًا. فضحكت وقلت: «سنطعن جميعًا بعضنا البعض في الظهر تمامًا كما نفعل نحن التجار»، «لكن شكرًا لك يا فيرجوس. وبالطبع أعطهم كلمة مهما تكلف الأمر».

قال: «نعم»، «لكن لا تتصل بنا أو أيًّا من ذلك».

افترقنا خارج «بودلي»، وذهب فيرجوس إلى منزله خلف مكتبة ديوك همفري، بينما توجهت إلى شارع (ذا هاي)، لقد كان يومًا جميلًا في ذلك الوقت، الهواء صافٍ ودافئ، وهنالك بضعة سحب، مثل حلقات الدخان التي ترتفع عاليًا في السماء. كان هناك الكثير من القطارات عائدة إلى لندن لكنني لم أكن في

عجلة من أمري. وفكرت أن أمشي إلى واحدة من الأماكن المفضلة القديمة لدي، وهي الحديقة النباتية، والتي هي بالتأكيد أفضل أسرار أكسفورد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس

دخلت من البوابة الكبيرة في الطريق، وبدأت أسير ببطء في تلك الجادة الواسعة بحثًا عن ذاتي في بهجة وسرور، أتذكر العديد من الأوقات السعيدة التي أمضيتها هنا. لكنٍ كان الدير السيسترسي للقديس ماثيو دي إتوال ومكتبته فضلًا عن إمكانية الحصول على كتاب نادر جدًّا بالفعل تتصدر قائمة الأفكار التي تدور في عقلي. كنت أعلم أنني لا أستطيع أن أتحدث بكلمة واحدة عما قاله لي فيرجوس، لا للسيد إدجار ميريمان ولا لأي روح أخرى. فأنا لم أكن أحمقَ إضافة إلى أنني أردت أن أثبت لفيرجوس أن تجار الكتب الأثرية ليسوا دجالين كما يعتقد. لكنني على يقين من أنه كان يحاول مضايقتي فحسب، فقد كان يعرفني جيدًا بما فيه الكفاية.

تساءلت كم من الوقت سيستغرقه في طريقه لذكر أمر المجموعة الخاصة بشكسبير في رسالته للدير عبر البريد الإلكتروني على الأرجح، فكما أشار، فإنه ربما لن يمض وقت طويل على الإطلاق. ربما يمكنني خلال يوم أو نحو ذلك أن أعرف ما إذا كان الأمر سيتحرك خطوة أخرى إلى الأمام أو ما إذا كان موضوع الأعمال الكاملة سيتم طمسه على الفور. ولم يكن هناك شيء على الإطلاق يمكنني فعله سوى الانتظار.

لقد وصلت إلى بركة زهور الزنبق المستديرة الكبيرة التي تقع عند تقاطع عدة مسارات، بينما كان ثلاثة أو أربعة أشخاص يجلسون على المقاعد الموجودة جانبها مستمتعين بأشعة الشمس. كانت امرأة تقرأ كتابًا وأخرى كانت تحيك. وواحدة أصغر منهما برفقتها عربة أطفال فيها طفل نائم.

جلست في نهاية المقعد، وأنا ما زلت أفكر في أمر تلك المجموعة الخاصة بشكسبير، وعندما جلست حدث شيء ما من الصعب وصفه على الرغم من سهولة تذكره، لكنني لم أختبر أبدًا أي إحساس مثله ولا يزال بإمكاني الشعور به.

يجب أن أؤكد مرة أخرى كيف كنت مرتاحًا في جلستي، فقد تناولت غداءً جيدًا مع صديق قديم أعطاني جزءًا من المعلومات التي قد تكون مثيرة للغاية. وكنت في إحدى المدن المفضلة لدي والتي لا تحمل لي سوى ذكريات سعيدة، بينما كانت الشمس مشرقة و كل شيء على ما يرام بالنسبة للعالم في حقيقة الأمر.

أما الشابة التي تحمل عربة الأطفال، فقد نهضت للتو وفحصت طفلها ومضت للخلف نحو البوابة الرئيسية تاركة تلك المرأة القارئة والأخرى التي تقوم بالحياكة، وأنا أمام البركة الحجرية المرتفعة، حيث كانت المياه داكنة، لامعة، وساكنة تمامًا.

وفي تلك اللحظة، شعرت بخوف لا يحتمل، لم يكن خوفًا من أي شيء، بل كان ببساطة خوفًا وارتعادًا وفزعًا وكأن البرودة تسري في جسدي وتمسك بصدري حتى شعرت أنني لا أستطيع التنفس فيما تصلبت عضلات وجهي كما لو كانت قد تم تجميدها. شعرت بقلبي ينبض داخل القفص الصدري وصوت دقاته يتردد في أذني. كان فمي جافًّا، وبدا أن لساني كان يلتصق بسقفه. أما شفتي العليا وفكي ورقبتي كتفي وجانبي الأيسر بالكامل شعرت وكأنهم يتعرضون للضغط الشديد ولجزء من الثانية شعرت بأني أصبت بنوبة قلبية لكنني لم أشعر بألم، وبعد ثانية أو ثانيتين خفّت حدة ذلك الشعور قليلًا رغم أنه كان لا يزال من الصعب علي أن أتنفس. وقفت وبدأت ألهث من الهواء، وشعرت بجسدي كما لو كان باردًا متجمدًا يبدأ في الاهتياج ثم

التعرق. كنت مرعوبًا. ولكن من ماذا؟ لم يحدث شيء. لم أر شيئًا، لم أسمع شيئًا. كان المكان مضاءً بنور الشمس كما كان من قبل فيما تبحر السحب البيضاء الصغيرة بلا مبالاة في السماء، حيث انعكست واحدة أو اثنان منها على سطح البركة الساكنة.

ثم شعرت بشيء آخر. فقد كانت لدي رغبة كبيرة في الاقتراب من بركة المياه والوقوف بجانب حافته الحجرية وتحديق النظر في الماء حتى أدركت ما كان يحدث لي. فقبل بضع سنوات مر «هوجو» وهو أخي وأكبر مني بست سنوات بانهيار عصبي استغرق منه عامين للتعافي. لقد أخبرني أنه في الأسابيع التي سبقت إجباره على طلب المساعدة الطبية وبالطبع قبل إدخاله إلى المستشفى أيضًا، كان أسوأ شيء تقريبًا من بين العديد من التجارب المروعة هو الشعور برغبة شديدة في إلقاء نفسه من حافة رصيف محطة مترو الأنفاق إلى القضبان. وعندما شعر أنه خائف جدًّا من الخضوع لرغباته، ظل يسير في كل مكان كما رغب أيضًا أن يسير مبتعدًا عن الرصيف إلى منتصف حركة المرور. ولهذا بقي في المنزل، ليغمره هذا الشعور مرة أخرى، هذه المرة في الرغبة في إلقاء نفسه من النافذة على الرصيف الموجود أدناها.

أما الآن فقد كان كل هذا يحدث لي. إذ شعرت وكأنني أجبرت على التقدم من قبل قوة خارجية، وما أرادت مني هذه القوة أن أفعله هو أن أرمي نفسي في تلك البركة العميقة الكبيرة. وعندما شعرت بالدفع من الخلف كانت هنالك قوة مغناطيسية قوية تسحبني إلى الأمام. يبدو أن قوة السحب قادمة من البركة نفسها وبين القوتين كنت عاجزًا تمامًا. أعتقد أنه قد انقضت بضع ثوانٍ من محاولة دفع نفسي للأمام في اتجاه الماء المعتم، عندما

بدأت المرأة التي كانت تحيك تتحرك من مكانها فجأة. وبالفعل حطمت حركتها التعويذة، حيث استرخى كل شيء فتقلصت القوة وتراجعت للخلف تاركة إياي واقفًا في منتصف الطريق أو الساحة أو في نطاق البركة. وكان هنالك زوجان يسيران تجاهي وهم متعانقا الأيدي، بينما كانت تحلق طائرة صغيرة ببطء في سماء المنطقة. ويهب النسيم بدوره رويدًا رويدًا حتى امتص الخوف مني على الرغم من شعوري بالرجفة والدوار، ولهذا فقد ابتعدت لأجلس مرة أخرى على المقعد لاستعادة قوتي.

مكثت لحوالي عشرين دقيقة. فقد استغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى شعرت بالهدوء مرة أخرى، وبينما أجلس تحت أشعة الشمس أفكر في (هوجو) وكيف لم أعِ تمامًا حتى وقتنا هذا كم كانت محنته مرعبة، وكيف استحوذ الرعب عليه عقليًا وجسديًا. لا عجب فيما قاله لي عندما قمت بزيارته في المستشفى عن أنه يشعر بالأمان لأول مرة منذ عدة سنوات.

هل كان الأمر وراثيًا إذًا؟ هل كنت على وشك تجربة هذه الرغبات المرعبة لإلقاء نفسي من النوافذ أو على قضبان القطارات القادمة؟ أنا أعرف أن هوجو قد مر بفترة مضطربة للغاية في شبابه، وقد أرجعت حالته إلى كونها ردة فعل لذلك، فعلى حد علمي لم يعان أي من والدينا بنفس الطريقة.

في نهاية المطاف تمكنت من النهوض والسير نحو البوابات. وكنت أشعر بتحسن مع كل خطوة، حيث كان الخوف يتراجع بسرعة. ارتجفت قليلًا فحسب عندما نظرت إلى الوراء ناحية البركة ولا شيء آخر. وكان من دواعي سروري أن أسير وسط الصخب العالي من حولي دون أن أجد أي دافع على الإطلاق

لرمي نفسي تحت الحافلة، بل سرت في نشاط وهمة نحو محطة السكة الحديد واستقللت القطار التالي عائدًا إلى لندن.

وفي تلك الليلة، حلمت أنني كنت أسبح تحت الماء بين الأسماك المتلألئة ذات الأجسام الذهبية والفضية التي كانت تنزلق أمامي وحولي في الماء البارد المعتم. والتي بدت جميلة لفترة من الوقت. شعرت بالهدوء والسكينة حتى ظننت أنني سمعت موسيقى خافتة لكني بعد ذلك لم أعد أسبح، بل كنت أغرق. لقد بدوت مثل سمكة قادرة على التنفس تحت سطح الماء ولكن فجأة كان الهواء يخرج من رئتي من خلال تدفق سريع للمياه وكنت ألهث مع إحساس مؤلم في صدري ونبض مخيف داخل عيني.

استيقظت في غرفة نومي المظلمة ومددت يدي لتشغيل المصباح، ثم جلست وأنا أستنشق نفحات رائعة من الهواء. ومن ثم نهضت وذهبت إلى النافذة لأفتحها وأتنفس مستشعرًا تلك الليلة الباردة في لندن، ورائحة الأشجار والعشب في الحدائق العامة للميدان، افترضت أن الذعر الذي غلبني بجانب البركة في الحديقة النباتية قد ترك آثاره حتمًا في لاوعيي، ولذلك لم يكن من الغريب أن تتحول هذه الأشياء إلى أهوال ليلية.

لكن سرعان ما تلاشى كل شيء كما تلاشى رعب ما حدث بعد الظهيرة، فعادة ما تكون حالتي المزاجية متزنة وقد استعدت معنوياتي الطبيعية بسهولة تامة، شعرت فقط بالحيرة لأنني تعرضت لمثل هذه النوبة من الذعر المفاجئة بجانب كابوس أظهر فيه مرتعدًا من الخوف، بالرغم من أنني قضيت يومًا ممتعًا، وكنت متحمسًا لضربة فيرجوس المحتملة، وكان مسار حياتي متساويًا وممتعًا كعادته.

الشيء الوحيد غير المريح الذي مر بي مؤخرًا هو الحادث الذي وقع في حديقة البيت الأبيض، وعلى عكس الرعب الذي شعرت به والكابوس الذي جاءني في الليل، فإن ذكراها لم تتلاشَ، فقد كانت أكثر وضوحًا في واقع الأمر، فقد أغمضت عيني وشعرت مرة أخرى بيد صغيرة في يدي. يمكن أن أطوي أصابعي عليها تقريبًا، كان الإحساس حقيقيًا جدًّا وقويًّا جدًّا.

ومن دون أن أعلم أنني سأفعل ذلك فقد قمت بضم أصابعي كما لو كنت أحتضنها لكن لم يكن هناك منها شيء. ليس هذه المرة. ليس الليلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع

كان عملي يمر بحالة الركود المعتادة في الصيف ولم يكن لدي ما يكفي كي يبقيني منشغلًا. أما عن الكابوس ذاته فلم يعد لي من جديد، وعلى الرغم من عدم تعرضي للمزيد من هجمات الخوف فإنني لم أستطع إخراج هذه التجربة من ذهني، وفي نهاية المطاف قررت أن أتحدث مع أخي.

اتصلت لأسأل ما إذا كان بإمكاني الذهاب لرؤيتهم في إحدى الليالي ولقاء زوجته الدنماركية «بينيديكت» التي كانت ترحب بي دائمًا. والتي أعتقد أنه بالنسبة لها كان بإمكاني الوصول إلى باب منزلهم في أي وقت من النهار أو الليل وسأتلقى الترحيب المناسب تمامًا، أما بالنسبة إلى هوجو فقد كان الأمر مختلفًا. فهو يعمل مدرسًا في مدرسة حكومية للبنين والتي تقع في مدينة تجارية ساحرة في سوفولك. كما أن لديهم منزلًا على الطراز الجورجي مع حديقة تقودك إلى النهر إلى جانب ذلك الشعور بنفاد الوقت الذي يبدو دائمًا جزءًا أساسيًّا من هذه الأماكن.

وكان لديهم ابنة واحدة تدعى كاترينا، وقد غادرت لتوها للبقاء مع أبناء عمومتها في الدنمارك لقضاء العطلة. أما هوجو وبينديكت فقد كانا في طريقهما إلى الولايات المتحدة، حيث يعمل في مدرسة صيفية.

لطالما شعرت بهدوء وسعادة كبيرين عندما أخطو من خلال باب منزلهم. فالمنزل مبهج وأنيق ونظيف دائمًا. يبدو من الخارج كأنه يعود إلى القرن الثامن عشر، أما من داخله فيتخذ طراز إسكندنافي حديث، مع الكثير من الأرضيات الخشبية الباهتة والسجاد ذي اللون الكريمي والكراسي الجلدية باللون ذاته إضافة

إلى كل ما هو مصنوع من الفولاذ والكروم. وكان هذا المنزل ليبدو خاليا من أي روح لولا شيئان؛ أولهما: الدفء الذي ينبعث من بينديكت نفسها، وثانيهما: المعلقات الجدارية الغنية بالألوان التي تنسجها وتبيعها، حيث تجعل المنزل غنيًّا باللون القرمزي والأرجواني الفخم والأزرق الداكن والزمرد.

إنه محيط غريب حقًّا بالنسبة لأخي. وربما أنه لم يصل بعد إلى الخيوط الأخيرة لفهم هذا التوازن، وهو كيف أن هذا المنزل وزوجته جيدان جدًّا بالنسبة له. فيمتلك هوجو طبعًا حادًّا، ويميل إلى الاختفاء داخل ذاته وقطع مسافة شاقة بعيدًا عما يدور حوله. لكنه يحب وظيفته وعائلته ولا أعتقد أنه منزعج للغاية على الرغم من ذلك القدر من المعاناة الذي يتملكه ويعيد التفكير فيه من وقت لآخر.

وصلت في وقت متأخر من الظهيرة، ووصلتني الأخبار أن بينيديكت ذهبت إلى تدريب الأوركسترا الخاص بها، حيث إنها تعزف المزمار لكنها تركت لنا عشاءً لذيذًا لم يكن يحتاج سوى بضع لمسات أخيرة. كان المطبخ مفتوحًا على الحديقة، حيث يمكنك استراق نظرة خاطفة عن النهر، وكان الجو دافئًا بدرجة كافية حتى نترك الأبواب مفتوحة حتى المساء. وحيث كانت ألسنة اللهب في حواملها الفضية النحيلة تومض بالكاد.

قلت لهوجو: «أحتاج إلى نصيحتك.. نصيحة، مساعدة، لست متأكدًا» وكان ذلك عندما بدأنا في تناول السمك المدخن، فنظر إليّ. لم نكن متشابهين في الشكل، فقد كان هوجو يشبه والدتنا في كونها طويلة وذات بشرة داكنة ووجه بيضاوي طويل. أما أنا فممتلئ الجسم وأكثر وسامة، على الرغم من تساوي قامتينا، لكن أعيننا هي نفسها زرقاء داكنة عميقة. وكان النظر في عيني

هوجو غريبًا، مثل النظر إلى عيني في المرآة. حتى جعلني أتساءل إلى أي مدى يمكن أن أرى نفسي في أعماقه؟

«هل سبق لك ... » سألته وأنا أنظر إلى السمكة التي تستقر على شوكتي، لم أكن أعرف كيف أسأل؟ وما هي الكلمات التي يجب استخدامها؟ والتي لن تزعجه.

فاستكملت قائلًا: «أتساءل عما إذا كنت في بعض الأحيان...»

كان ينظر إلي مباشرة بعينه الزرقاء التي لا تزيغ ببصرها، مثل لهيب الشمعة. لكنه كان صامتًا ولم يقدم لي أي مساعدة.

«الشيء... حدث لي شيء سيئ للغاية. لم يحدث شيء مثل هذا من قبل. ليس لي. لا شيء ... » ظللت أتحدث حتى تراءى لي صوتي وهو يسير بي نحو الصمت من جديد، وبعد لحظة قال هوجو: «استمر».

وكتيار جارف قد أطلق له العنان لتوه بدأت أخبره عن فترة ما بعد الظهيرة في الحديقة النباتية، وخوفي الرهيب، ومن ثم الرغبة الشديدة في السقوط على وجهي في الماء. أخبرته بكل شيء عن ذلك اليوم، وشرحت له مشاعري التي أدت بي إلى الخوف، وانخرطت في بعض التفاصيل حول كيف كانت الأمور في حياتي الحالية، لكن الشيء الوحيد الذي لم أذكره لأنه لم تكن هناك كلمات لوصفه بطريقة ما كان: اليد الصغيرة.

استمع هوجو إليّ دون مقاطعة. وبدأنا نتناول فطيرة الدجاج مع السلطة، ومن ثم توقفت عن الحديث حتى أخذ هوجو قطعة خبز، أما بالخارج فقد أصبح المكان مظلمًا تمامًا، دافئًا وساكنًا جدًّا. فتذكرت تلك الليلة التي جلست فيها في الشرفة في منزل

ميريمان عند غروب الشمس بعد فترة وجيزة من بدء هذه الأحداث الغريبة.

حتى قال هوجو في هدوء: «هل تعتقد أنك مجنون؟ مثلي».

فقلت: «لا. بالطبع لا».

فأجابني: «أوه، هيا يا آدم... إذا كنت هنا للحصول على نصيحتي أو أيًّا كان ما تريده فأخبرني بالحقيقة».

«أنا آسف. لكن الحقيقة هي حسنًا، أنا لا أعرف ما هي لكنك لم تُصَب بالجنون».

«بل أصبت، ومهما كان معنى «الجنون»، فقد وصلت إلى درجة معينة منه، كنت في مصحة عقلية بالله عليك!»

لم أسمعه أبدًا يتحدث بهذه القسوة من قبل، فقلت: «آسف».

فقال: «لا بأس. أنا نادرًا ما أفكر في ذلك الآن. لقد مضى وقت طويل ومع ذلك يحدث أحيانًا أن يظهر ذلك الطيف من الماضي، وعندما يحدث ذلك أتساءل عما إذا كان يمكن أن يعود. ولا أدري لأنني لا أعرف سبب ذلك في المقام الأول. فقد انقلبت حالتي النفسية من الداخل إلى الخارج واهتزت أعماقها لكنهم لم يفهموا السبب مطلقًا».

ثم نظر إليّ وكأنه يتوقع ما أقول: «وها أنت الآن إذًا»، وبعد أن رأى تعبير وجهي، أضاف بسرعة: «معذرة آدم. بالطبع لا أقصد أنك كذلك، فما حدث لك كان مجرد نوبة هلع».

«ولكن لم يحدث لي مثل هذا الشيء في حياتي».

فهز كتفيه، حينما دخلت عثة كبيرة ناعمة وشاحبة من النافذة المفتوحة وكانت تدور حول المصباح. لكني لم أهتم أبدًا بتلك

العثات.

وقلت له: «دعنا نخرج لاستنشاق بعض الهواء».

كان من الأسهل أن أتجول بجوار أخي في الحديقة، حيث يمكنني التحدث دون الحاجة إلى رؤية وجهه.

«لماذا أمر بما تسميه نوبة هلع، فجأة؟ ما الذي قد يسبب ذلك؟»

«ليست لدي أدنى فكرة. ربما أنك لست بخير؟»

فقلت له «أنا بخير، ألا يجب أن ترى أنت طبيبك كي تقوم بعمل فحص؟»

«أعتقد أنني يجب أن أفعل، عندما ...لا»، واستكمل قائلًا: «فأنا لم أكن مريضًا أيضًا».

وقفنا في نهاية الطريق، حيث كان النهر مظلمًا على بعد خطوات قليلة، قلت له: «كنت على بعد شعرة من رمي نفسي في تلك البركة. لقد كان الأمر مرعبًا. كان الأمر كما لو كان علي القيام بذلك كان هناك شيء ما يدفعني»

«أخشى أن يحدث ذلك مرة أخرى».

وضع يده على كتفي لفترة وجيزة قائلًا: «اذهب لزيارة طبيب ما، ولكن ربما لن يحدث ذلك مجددًا كما تعلم».

«هل تساءلت يومًا ما إذا كان أي شخص آخر في العائلة قد تعرض لهذه الهجمات، لتلك المخاوف؟»

«نعم. بقدر ما يعرف أي شخص، فهم لم يمروا بذلك».

«أوه».

«أعتقد أن هذا الحدث هو مجرد صدفة».

«قد لا أكون قادرًا على المقاومة مرة أخرى».

«أنا متأكد من أنك ستفعل ذلك».

«هل كان من الممكن أن تقفز أمام أحدى تلك القطارات؟»

قال بحذر: «أعتقد.. لكن كان هناك شيء في داخلي يمنعني، شيء أقوى منه، أيًّا كان هذا الشيء ولكن ربما مرة... ربما مرة واحدة، وبدا كمن يفقد توازنه وهو يقول: «بالأحرى لا يجب أن أقول ذلك».

فسألته: «لا تريد أن تتذكر ما حدث لك من قبل..!»

قال: «نعم».

سمعنا صوت سيارة بنديكت، ثم تبعها صوت حركة الباب الأمامي. فاستدار هوجو ليعود إلى الداخل. لكني لم أذهب خلفه، بل مشيت إلى ما بعد نهاية الحديقة، وعبرت الطريق الضيق حتى وقفت على ضفة النهر. كان بإمكاني شم رائحة الماء وعلى الرغم من أن القمر لم يكن كاملًا، بل نصفًا منه، إلا أن سطحه كان يلمع على نحو طفيف، شعرت بالهدوء والارتياح الآن، وقد بدا لي أن هوجو يمر بمحنه الخاصة على نحو سلمي. لكنه لم يكن يريد الخوض في ذلك، ولا يمكنني لومه على ذلك، واعتقدت أن كل ما حدث لي كان من ترتيب ومن مصدر مختلف تمامًا. وعلمت أيضًا أنه إذا حدث لي مرة أخرى فلن يرغب أخي في مساعدتي. فلم يقل أي شيء، وأما في جميع النواحي الأخرى من الحياة كنت أعرف أنني سأتمكن دائمًا من الاعتماد عليه كما أتمنى أن يفعل هو الشيء ذاته، لكن في هذا الأمر كنت وحيدًا.

أو ربما لست وحيدًا.

سمعت الماء يتدفق على جانب النهر بهدوء. لم أشعر بالخوف منه. لماذا يجب علي أن أخاف؟

فانتظرت لبعض الوقت هناك في الظلام حتى سمعت أصواتهم من المنزل، باب مغلق، وضوء يومض في الطابق العلوي، ظللت هكذا حتى شعرت ببرد الليل ينبعث من الماء ثم التفتّ بعيدًا في حالة من الحزن وخيبة الأمل لأن اليد الصغيرة لم تتسلل إلى يدي. كنت أتوقع حدوث ذلك.

فلا يزال لدي إحساس بأن اليد تخص شخصًا نواياه حميدة تمامًا، شخصًا يميل إليّ ويثق بي.

عدت بذهني إلى الوراء في تلك الليلة، في اشتياق إلى الشعور بالسلام الذي عرفته حينها حتى لو انتابني الشعور أيضًا بوحدة غريبة ومفاجئة، ولسبب غريب تمنيت في الواقع وجود اليد الصغيرة التي تمسك بيدي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن

في الليلة التالية حلمت حلمًا آخر، إذ كنت أقف كما كنت أقف في ذلك المساء بجانب البوابة المكسورة التي تؤدي إلى حديقة البيت الأبيض، ولكن هذه المرة لم يكن وقت المساء فحسب، بل في منتصف الليل..

كانت ليلة باردة صافية مع سماء ممتلئة بالنجوم اللامعة. وقد كنت وحدي، كنت أنتظر، أعلم أنني كنت أنتظر، ولكن مَن أنتظر فلم يخبرني الحلم بذلك، شعرت بالحماسة كما لو أن بعض الأحداث المثيرة التي طال انتظارها كانت على وشك الحدوث، أو أنني كنت سأرى شيئًا جميلًا للغاية وسأختبر بعضًا من المتعة.

ولكن بعد فترة كنت أعي أن أحدًا كان قادمًا نحوي من أعماق الحديقة من خلف البوابة رغم أنني لم أسمع ولم أر شيئًا.

ولكن كان هناك مصباح صغير يتأرجح في الظلام بين الأشجار والشجيرات الصغيرة، يتأرجح إلى الأمام على مسافة قصيرة مني وكنت أعرف أنه يقترب، ربما كان شخص ما يحمل ذلك المصباح.

وانتظرت للحظة فمهما كان هذا الشخص فلعله يظهر أو يناديني. فقد كنت أتوق لرؤيتهم لعلهم يجلبون لي شيئًا ليس شيئًا ملموسًا، وإنما بعض الأخبار أو المعلومات. علهم يخبرونني بشيء وعندما يخبرونني به فسوف تعود الأمور لنصابها وسوف أعرف سرًّا عظيمًا.

اختفى الضوء بين فينة وأخرى حيث حجبته الشجيرات لكني بعد ذلك رأيته مجددًا بالقرب مني فتقدمت خطوة أو خطوتين

للأمام واضعًا يدي على البوابة المكسورة. إنني أستطيع أن أشعر به الآن، ذلك الخشب الخشن البارد تحت راحتي. وأستطيع أن أرى المصباح يصبح أكثر سطوعًا.

شعرت بموجة كبيرة من السعادة، وفي نفس الوقت برغبة في الركض نحو الضوء لأقطع طريقي عبر الأغصان المتدلية على الطريق. كان علي القيام بذلك. كنت بحاجة إلى فعله، فقد كان الأمر ملحًّا أن أذهب إلى الحديقة، وأن ألتقي بحامل المصباح، وألا أضيع لحظة أخرى حيث شعرت بطريقة ما أنني أهدرت الكثير من الوقت، ليس لحظات فحسب، بل شهورًا وسنوات.

ضغطت على البوابة لمحاولة تحريرها، حيث كانت مغروسة في الأرض والعشب الذي تجمع في كتل خشنة كبيرة من حولها، لكني لم أكن أدفعها بالقوة الكافية، فالبوابة لم تتزحزح من مكانها، فوضعت كتفي عليه فقد كنت مضطرًّا إلى فتحها والدخول إلى الحديقة والمضي قدمًا بسرعة لأن الضوء كان قريبًا جدًّا الآن، ولكنه يتحرك بطريقة جنونية من جانب إلى آخر كما لو كان شخص ما يتأرجح بشدة.

وضعت كل قوتي على البوابة ودفعتها، حتى استجابت فجأة فاندفعت إلى الأمام وشعرت بنفسي أسقط، وعندما سقطتُ؛ استيقظت من نومي.

انتابتني أفكار رائعة عن الحلم في غضون اليومين التاليين، وبدلًا من أن يتلاشى من ذهني أصبحت ذكراه أقوى. فكرت أنه ما إذا كان بإمكاني معرفة المزيد عن البيت الأبيض وحديقته وأنني إذا ذهبت إلى هناك مرة أخرى فسأكون قادرًا على تخفيف حجم السيطرة الغريبة التي تبدو أنها تستحوذ علي.

كنت سأقوم بزيارة إلى مكتبة لندن، وإذا لم تسفر عن شيء فسأذهب إلى مكتبة الجمعية الملكية للبستنة والزراعة، وأحاول العثور على أي كتب عنها. لم أكن مهتمًا بالحدائق ولكن شيئًا ما قادني إلى أعماق تلك الحديقة والشيء الذي حدث لي خلال تلك الدقائق القليلة التي قضيتها هناك هو ما كان يطاردني الآن.

وقبل أن تسنح لي الفرصة للوصول إلى أي مكتبة جاءتني مكالمة هاتفية من فيرجوس مكريدي أضاعت الأمر برمته من ذهني، والذي قال لي: «لدي أخبار من أجلك».

من الواضح أن دير القديس ماثيو دي إتوال يثق بفيرجوس، حيث أرسل إليه أمين المكتبة قائمة سرية بالكنوز التي شعروا بقدرتهم على بيعها لجمع الأموال التي يحتاجونها. وقال: إنها تضمنت أيقونتين منها المواضيع الإسلامية التي كانت هيلينا مهتمة بها للغاية وثلاث مخطوطات من العصور الوسطى. ومجموعة شكسبير من الأعمال الكاملة. كما سأله أمين المكتبة عما إذا كان سيتصرف كوسيط لبيع تلك العناصر، فقد أرادوا شخصًا لديه مدخل للمكتبات والمتاحف وجامعي التحف حول العالم ويمكن الوثوق به في عدم إرسال أخبار للصحافة، و قبل كل شيء رجل يعرفون عنه أنه عادل وشريف. وقد كان من المقرر أن يزور فيرجوس الدير في وقت لاحق من الصيف للنظر في كل شيء لكنه اقترح السماح لي بالذهاب إلى هناك مرة واحدة، لإلقاء نظرة على مجموعة شكسبير على وجه التحديد، وقد أخبر أمين المكتبة عني ويبدو أن أوراق الاعتماد الخاصة بي تمت الموافقة عليها، واقترح فيرجوس أن أقوم بعمل ترتيبات مع الدير لزيارته في أقرب وقت ممكن. وإذا وافقت على ذلك فعلي أن أرسل له بيانات التواصل معي موضحًا: «إنه أمر تحت نطاق

السرية، لكن يُسمح لأمين المكتبة والمدير الضيف بالتحدث في سياق واجباتهما ويتحدث كلاهما اللغة الإنجليزية. أقترح عليك المضي قدمًا في ذلك.

سألته إذا كان هذا يعني أنه يعتقد أنهم قد يغيرون رأيهم.

فقال: «لا، على الإطلاق. لقد تم تداول المسألة لفترة طويلة، وهم واثقون تمامًا منها، وقد وافق المسؤول المعني بالأمر على كل شيء. لكنك لا تريد أن يتعرف أي شخص على الأمر ولا أنا كذلك، ومن واقع خبرتي فإن بعض الأشياء تجد طريقها للخروج حتى من أفواه الرهبان الصامتين».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع

بدأت رحلتي في حالة من البهجة والتفاؤل، حيث تلاشى الظلام بعيدًا وأشرقت الشمس. وقد كنت بحاجة إلى الاستراحة لذلك سافرت إلى ليون ثم استأجرت سيارة إذ خططت لقضاء وقتي والتسكع على الطرق الريفية ومن ثم البقاء لمدة ليلتين أو ثلاث ليالٍ في المدن والقرى الصغيرة المختلفة والاستمتاع بفرنسا. كنت أعرف جيدًا أجزاء من البلاد ولكن ليس المنطقة التي كان يقع فيها دير القديس ماثيو دي إيتوال في أعالي جبال فركورز. لكني كنت على استعداد للاستكشاف ويسعدني أن أذهب في ما اعتقدت أنه رحلة قصيرة ممتعة ومع احتمالية العثور على كتاب نادر ورائع لإسعاد العميل في نهاية المطاف.

بالكاد أستطيع الآن أن أتعرف على الشخص الذي كنت عليه في بداية تلك الرحلة. الحقيقة أنني صادفت حدثًا غريبًا، والذي أثر فيَّ بعض الشيء، لكني أخرجت كل هذا من ذهني ليصبح آخر ما أفكر به.. فهو لم يغيرني تمامًا مثلما حل بي فيما بعد.. فقد كنت قادرًا على النسيان، أما الآن فلا أستطيع.

أرى تلك الأيام القليلة في فرنسا المنيرة بضوء الشمس على أنها أيام من النور قبل أن يحل الظلام، أيام من هدوء ما قبل العاصفة، أو ربما أيام البراءة.

كان الصيف قاسيًا وحارًّا، لكن الهواء كان صافيًا، وكما هو الحال دائمًا في مثل هذا الطقس، فقد بدا الريف في أفضل حالاته يمكنه أن يرفع من معنويات المرء، فقد كانت هناك مراعٍ وتلال لطيفة وقرى ساحرة.

وفي ليلة من الليالي التي قضيتها هناك، كنت أمكث في غرفة فوق إسطبل قديم يخمش فيه الدجاج في سعادة، وتبني فيه الطيور أعشاشها، وفي الصباح استيقظت وأنا أنظر عبر سلسلة بعيدة من التلال ذات اللون البنفسجي. كنت أمعن النظر نحوها في ذلك اليوم، حيث بدوا مثل صور في كتاب للأطفال، ومن ثم تناولت الطعام بقدر بسيط في وجبتي الإفطار والغداء لكنني دائمًا ما أتوقف في الوقت المناسب لتناول العشاء بقدر جيد حتى أنام سبع ساعات أو ثمانيَ نومًا عميقًا بلا أحلام.

وبحلول الوقت الذي كنت فيه على الطريق في صباح اليوم الثالث بدأ الطقس يتغير، حيث أشرقت الشمس خلال النصف ساعة الأولى أو نحو ذلك، ولكن عندما بدأت أقود متجهًا إلى ممر أعلى كنت أدلف بسيارتي في بقاع من الضباب الخفيف الذي يحوم من حولها، كان الجو رطبًا جدًّا، وكان بإمكاني رؤية سحب كثيفة ومظلمة تتجمع حول الجبال من أمامي. في السابق، كنت أقود سيارتي عبر العديد من القرى الصغيرة والساحرة وأرى أشخاصًا في الشوارع منهم من يعمل في الحقول ومن يركب الدراجات ومن يسير بشكل طبيعي لكنني الآن قد تركت المساكن التي تعج بالبشر ورائي. ومررت لأكثر من مرة بأضرحة صغيرة على جانب الطريق لإحياء ذكرى قتلى المقاومة في زمن الحرب التي كانت شديدة جدًّا في هذه الأنحاء. وفي مرة من المرات كانت هنالك امرأة عجوز تضع أزهارًا نضرة في المزهرية المعدنية التي تم صنعها لأجلهم، فلوحت لها لكنها حدقت بي دون أن تستجيب.

صارت الطرق أكثر انحدارًا وأصبحت الانحناءات أكثر حدة. وكانت السحب تمتلئ بالغيوم، وقد عبرت عدة أنفاق قصيرة

محفورة بين الصخر، وعلى جانبي الطريق بدأت المنحدرات في الارتفاع بلونها الذي يأخذ لون الجرانيت الرمادي مع التفاف غريب للنباتات وجذوع الشجر من حولها. تعثرت السيارة مرة أو مرتين، وكنت بحاجة إلى كل تركيزي للقيادة في بعض الانحناءات التي كانت تلتف مثل الثعابين لأعلى وأعلى.

وبعد ذلك وصلت إلى مرتفع ضيق، حيث كانت السماء مظلمة ولكن على يميني انطلق شعاع خفيف من ضوء الشمس لثانية واحدة عبر الوادي الموجود أدناه. وفي مكان ما لمعت المياه أثناء مروره، ولكن بعد ذلك بدأت قطرات كبيرة من المطر تتساقط فيما تنعكس انكسارات البرق الأزرق والأبيض على جانب الصخور. لم أكن متأكدًا مما إذا كنت سأنتظر أم أواصل المضي، لكن الطريق كان ضيقًا ولم أتمكن من القيادة في الطريق بأمان.

لم أر سيارة أخرى لعدة أميال، ولكن إذا جاء أحد ورائي خاصة في هذا الظلام وفي وجود أمطار تلك العاصفة العمياء؛ فمن المؤكد أنه سيصطدم بي. ولذلك قدت ببطء شديد، وكان المطر ينحرف إلى الجانبين حتى إن زجاجي الأمامي كان واضحًا بشكل غريب، وكان هناك مزيد من البرق والمزيد من الخطوط ذات المظهر الكبريتي المتساقطة من السماء التي تنعكس على الطريق. ولم أستطع معرفة ما إذا كان ما يتسبب في ذلك الصوت على سطح السيارة هو المطر أم الرعد.

كان الطريق لا يزال ضيقًا، ولكني الآن بدلًا من الصعود لأعلاه بدأت في النزول متجنبًا أعلى جزء من الجبل ومتجهًا نحو عدة منحدرات منخفضة جوانبها مكسوة بأشجار الصنوبر، وكان المطر يأتيني من خلفي ويبدو أنه كان يتزايد بفعل رياح دفعت السيارة إلى الأمام.

أنا سائق هادئ تمامًا، وقد قدت السيارة في ظروف مروعة من قبل لكنني الآن خائف، وكأن ضيق الطريق والحالة التي بدت عليها العاصفة والصخور العالية التي تدفعني لأسفل، جنبًا إلى جنب مع الضوضاء الهائلة اجتمعت كي تفقدني أعصابي تمامًا. وكنت أدرك أنني أسير وحدي ربما لأميال عديدة، وعلى الرغم من أنني أمتلك خريطة فإنني قد تلقيت تحذيرًا من صعوبة العثور على هذا الدير. اعتقدت أنه ربما لا يزال أمامي عشرون ميلًا أخرى لأقطعها قبل أن أبلغ المسار الذي يؤدي إلى القديس ماثيو، لكنني قد أفقده في مثل هذا الطقس.

ثم حدث شيئان.

فها هي من جديد، وفي وسط تلك العاصفة الدائرية السوداء، اخترقت أشعة من ضوء الشمس بطريقة ما عبر السحابة الكثيفة. وفي هذه المرة كدت أخطئ في الاعتقاد بأنها وميض آخر من البرق، حيث كان يميل إلى أسفل الصخرة على يساري وعبر الطريق أمامنا مما كان له تأثير مذهل في تحويل المطر الغزير إلى آلاف القطع من ألوان قوس قزح. والتي استمرت لمدة ثانية أو ثانيتين فقط قبل أن تغمرها الغيوم مرة أخرى، لكني خلال تلك الثواني رأيت الطفل، فقد كنت أقود ببطء وكان الطريق غارقًا فلم أستطع الرؤية عن بعد. لكن الطفل كان هناك. ولم يكن لدي شك في ذلك حينها كما ليس لدي شك في ذلك الآن.

في إحدى اللحظات كان هناك مطر فقط يتساقط على سطح الطريق متدفقًا على الجوانب شديدة الانحدار من ذلك المنحدر الصخري بجانب السيارة. ثم وفي شعاع ضوء الشمس المفاجئ كان هناك طفل، بدا وكأنه يجري في مسار ضيق على جانب

الطريق بين بعض الأشجار المتدلية فروعها، ومن ثم اندفع أمامي. فضغطت على المكابح حتى انحرفت وأنا أصرخ، كل ذلك في نفس اللحظة.

انزلقت السيارة بشكل جانبي وتوقفت على جانب الطريق حتى صارت مقدمتها باتجاه الصخور وقفزت خارجًا متجاهلًا المطر، حيث ما زالت العاصفة عنيفة. ولم أفهم كيف كان بإمكاني تجنب الاصطدام بالطفل فقد كان قريبًا جدًّا مني، وكنت متأكدًا من أنه صبي على الرغم من أنني لم أشعر بأي قوة تصادم. لم أره يسقط ولكن لا بد أنه سقط بكل تأكيد وربما كان جريحًا تحت السيارة.

مثل هذه العواصف العنيفة تتوغل بسرعة كبيرة في الجبال، واستطعت أن أرى المطر يبتعد عن الوادي الذي أمامنا، بينما يصبح أخف مع ارتفاع السحب، وكان الرعد يزأر فوقي، لكن البرق أصبح أقل وضوحًا.

ومن نظرة واحدة تحت السيارة اكتشفت أن جثة الطفل لم تكن ملقاة على الطريق تحتها، بل لم يكن هناك أثر على مقدمتها، فنظرت حولي ورأيت الطريق بين أشجار الصنوبر الذي لا بد أنه جاء راكضًا من خلاله حتى يتمكن من تخطي السيارة أو القرب منها ببضعة إنشات، ومن المفترض أنه سلك طريقه على الجانب الآخر المعاكس لها.

عبرت الطريق، حيث كان الرعد يزأر على يميني. وبدأ البخار في الصعود من على سطح الطريق، واندفعت تكتلات السحب أمامي بقوة الرياح التي تشبه قوة الإيكوبلازم.

وصرخت: «أين أنت؟ هل أنت بخير؟»

«أجبني» صرخت مرة أخرى هذه المرة بالفرنسية.

كنت أقف على قطعة من العشب الخشن على بعد أمتار قليلة من السيارة على الجانب الآخر. خلف السطح العاري من الصخور. واستدرت ونظرت للأسفل، حيث كنت أقف على حافة صغيرة. وكان تحتي ما يقود إلى واد أدناه. لمحت المياه الداكنة والمنحدرات على الجانب البعيد قبل أن أتراجع في رعب. حيث اختل توازني وكدت أن أسقط لكنني تمكنت من ضبط خطواتي والعودة عبر الطريق في أمان نحو السيارة. وعندما فعلت ذلك شعرت ومن دون أدنى شك بتلك اليد الصغيرة في يدي، لكن هذه المرة لم تكن تتجول برفق داخلها فقد أمسكتني بقبضة شديدة، وبينما كانت متمسكة بي شعرت أنها تدفعني نحو حافة الهاوية. ومن الصعب أن أصف كيف كانت مُلِحّة وعاقدة العزم على ذلك، ومدى قوة شيء لا أستطيع رؤيته.

كانت قوتها تعود لرجل ناضج على الرغم من أن اليد كانت لا تزال يد طفل، وفي نفس الوقت الذي يتم فيه سحبي شعرت بنفسي يتم حثها وإقناعها وتوجيهها بطريقة غريبة إلى الحافة. وكأنه إن لم يحدث الأمر بالقوة، فأسير كما لو أنني مغوى إلى الهاوية وإلى الوادي أدناها، كانت العاصفة قد تلاشت الآن، وكان الهواء مليئًا بالرطوبة التي علقت حولي بشدة حتى لم أستطع التنفس. وقد كان بإمكاني سماع صوت المياه المتدفقة وصوت تدحرج الحجارة أسفل منحدر التل، ولم يكن بعيدًا أيضًا، يبدو أن السيل قد جرف شيئًا لأعلى، وكنت أشعر باليأس في محاولة العودة إلى السيارة في أمان، ولم أستطع التخلص من اليد. لكني لم أتمكن من تخيل ما حدث للطفل، حيث إنني لم أر أي مسار، وإذا قفز فلا بد أنه سقط. ولكن من أين أتى طفل في هذه الأرض

المهجورة والخالية وفي مثل هذه العاصفة؟ وكيف تمكن من تجنب الاصطدام بسيارتي والاختفاء على حافة الهاوية؟

سحبت يدي بقدر ما استطعت من قوة من قبضة ذلك الشخص غير المرئي. إذ شعرت كما لو كنت أقاوم قوة مغناطيسية كبيرة ولكن بطريقة ما تراجعت إلى الخلف عبر الطريق، ثم تمكنت من تحرير يدي والدخول إلى السيارة. أغلقت الباب خلفي في حالة من الذعر، وعندما فعلت ذلك سمعت صراخًا. كان صراخًا من الألم والحنق والمعاناة معًا، لكنه ومن دون شك كان صراخ طفل غاضب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العاشر

كانت خريطتي غير كافية بالنسبة لي، ولم تكن هناك علامات على الطريق. كنت أرتجف أثناء قيادتي للسيارة وكان عليّ أن أقول لنفسي باستمرار أنه مهما حدث فأنا لم أقتل أو أصيب أي طفل، ولم أسمح لنفسي بالوقوف على حافة الهاوية حتى الموت.

انتهت العاصفة، ولكن اليوم لم يعُد إلى طبيعته، بل ظلت السماء شاحبة والمناخ كذلك ظل ضبابيًا، ومن وقت لآخر كان ستار من السحاب يتراص أمامي مما يجعل الرؤية صعبة. وقد اتخذت منعطفًا خاطئًا مرتين، وأجبرت على إيجاد طريقة للعودة على طريقي الصحيح. ولم تتسنَّ لي رؤية أحد باستثناء رجل منعزل يقود قطيعًا من الماعز عبر حقل بعيد.

وبعد ساعة ونصف استدرت من منعطف حاد وقمت بقيادة السيارة عبر أحد الأنفاق العديدة المحفورة بين الصخر، ثم رأيت انعطافًا آخر إلى اليسار بجانب أضرحة صغيرة أخرى فتوقفت أتفحص خريطتي، وإذا لم يكن هذا هو الطريق إلى الدير فسأسير ستة أميال أخرى للوصول إلى القرية التالية كي أجد من أسأله.

كان الممر الضيق يمتد بين الضفاف المرتفعة وعبر أشجار الصنوبر القاتمة التي ارتفعت جذوعها النحيلة إلى الأمام وعلى جانبي سيارتي، واحدة تلو الأخرى، وبعد أن كان الطريق مستويًا إلى حد ما بدأ في الالتواء والارتفاع لأعلى ثم الهبوط قبل الارتفاع مرة أخرى. ثم فجأة خرجت إلى منطقة واسعة، حيث كانت

هناك أمامي لافتة خشبية صغيرة يعلوها صليب تقول: «دير القديس ماثيو دي إتوال. مكان انتظار السيارات».

أطفأت المحرك وترجلت من السيارة. كانت هنالك رائحة قوية للتربة الرطبة وشجر الصنوبر، وبين الحين والآخر كانت قطرات قليلة من المطر تتدحرج على جذوع الشجر وتتطاير على الأرض. بينما يزأر الرعد لكنه كان على مسافة بعيدة، أما خلاف ذلك، فقد كان كل شيء صامتًا، وكأنني في لحظة عدت إلى ذلك المساء، حيث أقف خارج بوابة البيت الأبيض وحديقته السرية المكسوة بالعشب، حيث كان لدي نفس الشعور بالغرابة والعزلة عن بقية العالم.

كانوا يتوقعون زيارتي في الدير. فقد أجريت مراسلات عبر البريد الإلكتروني مع أمين المكتبة وتأكدت من إمكانية توفير غرفة للضيوف في أي وقت، حيث كان لديهم عدد قليل جدًّا من الزوار، وأولئك الرهبان الموجودون بشكل أساسي لديهم منازل أخرى. كما أرفق أمين المكتبة «دوم مارتن» مجموعة من الملاحظات المفيدة حول الدير وأسلوب الحياة هناك. والذي سأكون قادرًا على التحدث إليه فقط على الرغم من أنه من الممكن أن يستقبلني رئيس الدير أيضًا، كما يمكنني التحدث أيضًا إلى السيد المسؤول عن استقبال الضيوف وحضور بعض الخدمات المقامة في الكنيسة، كما سيتم منحي حق الدخول إلى المكتبة. لكن هذا كان أمرًا سريًّا، وعلى الرغم من أنني كنت موضع ترحيب فإنني سأسير وفقًا لحدود معينة.

فقد كتب لي أمين المكتبة بالفرنسية قائلًا: «من المرجح أنك ستكون هنا بمفردك».

أما الآن، فقد أخرجت حقيبتي من السيارة وانطلقت في الطريق الضيق عبر أشجار الصنوبر الكثيفة الهادئة. وكنت لا أزال أعاني من آثار ما حدث لكنني سعيد لوصولي إلى مكان آمن، حيث سيكون هناك بشر آخرون حتى وإن كانوا صامتين وفي معظم الأحيان لا يمكن الوصول إليهم. فالدير أرض مقدسة، وبالتأكيد لا يمكن أن يحدث لي شيء سيئ هنا.

انعطف المسار لمسافة نصف ميل تقريبًا، وكان رتيبًا في معظم الطريق الذي تفسحه لك صفوف من أشجار الصنوبر خطوة تلو الأخرى. في البداية كان الطريق مستويًا حتى بدأت في الارتفاع ثم الارتفاع بشدة. وكان الصوت الوحيد الذي أستمع إليه هو الطقطقة الخافتة لخطوات قدمي على الأرض المليئة بشجر الصنوبر. فلم تكن هناك طيورعلى الرغم من أنني كنت أسمع من بعيد صوت تدفق المياه كما لو كان هناك نهر صغير يتدفق فوق الصخور. كان الهواء رطبًا، ولكن صعودي إلى أعلى جعلني أشعر بالبرد، وهو ما كان مرحبًا به بالنسبة لي فقد تخيلت هذا المكان في فصل الشتاء القارس عندما يجعل الثلج من ذلك المسار طريقًا سالكًا ويخمد الأصوات القليلة الموجودة هناك.

توقفت عدة مرات لالتقاط أنفاسي. فأنا أسير في أنحاء لندن والمدن الأخرى كثيرًا لكن يكون الطريق سهل، ولا يتعرض المرء لمثل هذا الارتفاع الحاد. ومن ثم مسحت وجهي على أكمام سترتي واستمريت. وفجأة خرجتُ من بين الأشجار، ونظرتُ إلى أسفل منحدر بارز من نتوء صخري يؤدي إلى دير القديس ماثيو دي إتوال.

كانت الأسطح من الألواح الخشبية ذات اللون الرمادي الداكن، أما الشكل العام كان مستطيلًا مغلقًا به مبنيان منفردان على

الجوانب القصيرة؛ أحدهما به برج ذو جرس في أعلاه. بينما ينقسم كل جانب من الجوانب الطويلة إلى عشرين وحدة متطابقة. كما كان هناك مستطيل ثان أصغر من المباني الموجودة في الشمال. جميعها على مستوى واحد، وتحيط بها العديد من المراعي الصغيرة المحاطة بالسياج، ولكن خلفها كانت الأرض شديدة الانحدار ترتفع إلى عدة قمم عالية عبارة عن غابات من الصنوبر. أشرقت الشمس للحظة، حيث كانت تغمر المكان بضوء لطيف وهادئ. وكانت السماء زرقاء من فوق القمم على الرغم من وجود عدد كبير من السحب التي تهيم بينهم. وقد سمعت رنين جرس، والذي كان من النوع الذي يدق رويدًا رويدًا طوال الصيف عبر جبال الألب السويسرية، بينما سقطت نحلة على نبتة أرجوانية ممزقة عند قدمي، أما عن باقي المكان فقد كان عميقًا غارقًا في صمت مهيب.

توقفت كي ألتقط أنفاسي وأحدد اتجاهاتي، وقد كانت الحقيبة القماشية معلقة على كتفي، ولأول مرة في ذلك اليوم شعرت بإحساس طفيف من الخوف الذي كان يضغط علي. وتذكرت أيضًا أنه في مكان ما في تلك المجموعة المتداخلة من المباني القديمة أدناه كانت هناك كنوز وكتب وأيقونات وصور غير عادية من يعرف ماذا أيضًا؟

ونقلت الحقيبة إلى كتفي الأيسر، وبدأت أشق طريقي بحذر عبر المسار الصخري شديد الانحدار نحو الدير.

لم أكن أعرف ما كنت أتوقعه. فقد كان المكان صامتًا باستثناء قرع جرس واحد عندما اقتربت من البوابة. فتوقفت وكان كل ما سمعته هو تلك الأصوات الطبيعية الخافتة، فقد كانت قطرات المطر تتساقط من الأسطح والأشجار إضافة إلى صوت النهر

الصغير. ولكن عندما فُتح لي باب في البوابة الخشبية العظيمة وأخبرتهم باسمي، استقبلني راهب مبتسم قوي البنية يرتدي غطاء رأس أسود ومئزرًا قطنيًّا كبيرًا، ورحب بي باللغة الإنجليزية قائلًا: «أهلا بك سيد سنو، أنا فرير جيان مارك، المسؤول عن الضيوف، من فضلك»، وأخذ حقيبتي مني ورفعها كما لو كانت تحتوي على هواء وريش لا أكثر.

سألني أين تركت سيارتي el ثم ذهبت معه عبر فناء داخلي باتجاه مبنى من ثلاثة طوابق.

وكان لكل صوت صدى خاص به في مثل هذا الجو الصامت، صوت خطواتنا المنفصلة في إيقاع منتظم، إضافة إلى سعال الراهب الخفيف وصوت جرس آخر.

«لقد قطعت شوطًا طويلًا لزيارتنا».

«نعم، لقد مررت أيضًا بعاصفة رهيبة للتو».

«آه بالطبع، المطر، المطر. لكن عواصفنا تذهب بالسرعة التي تأتي بها.. إنها الجبال».

«كان الطريق منحدرًا. فأنا لست معتادًا على مثل هذه الانحناءات»

فضحك وقال: «حسنًا، ها أنت هنا. مرحبا بك».

كنا قد صعدنا ثلاث مجموعات من السلالم الحجرية، وسرنا على طول ممر قصير إلى الباب الذي فتحه الآن، ووقف جانبًا للسماح لي بالمرور.

ثم قال مرة أخرى: «مرحبًا».

شعرت بدفء حقيقي في طريقة تحيته. فقد كانت ضيافة الغرباء جزءًا مهمًّا من عادات الرهبان، إذ إنهم لا يستقبلون الكثير من الناس.

مشيت إلى الغرفة الصغيرة المربعة، حيث كانت تطل النافذة المقابلة مباشرة على المنحدرات المغطاة بأشجار الصنوبر وقمة الجبل المدببة. وكانت الشمس ساطعة مائلة نحونا وتضيء الخضرة العميقة الداكنة للأشجار كما تطل على الجدران الحجرية البيضاء لمباني الدير المحيطة.

قال لي مبتهجًا: «نعم، منظر جميل. لكن يجب أن تراه وسط الجليد. هذا هو المشهد الرائع».

«أعتقد أنه يأتيكم عدد قليل من الضيوف في الشتاء».

«لا أحد يا سيدي، ونظل هكذا لبضعة أشهر.. والآن ها هو فراشك، طاولتك ومقعدك. وهنا تجد رسالة من رئيس الدير إليك ورسالة أيضًا من دوم مارتن أمين المكتبة. أما هذه القائمة فهي جدولنا الزمني. وهذه خريطة صغيرة. لكنني سأكون حاضرًا في الأوقات التي ستلتقي بهم فيها. كما أنه مرحبًا بك في الخارج في أي مكان باستثناء الدير الخاص. مرحبًا بك لحضور أي خدمة في الكنيسة وسأصطحبكم في غضون نصف ساعة لأريك المكان المخصص لهذا، والمكان الذي يمكنك الجلوس فيه، حيث غرفة الطعام. لكن في الوقت الحالي سأقدم لك ما تحتاجه في هذه الغرفة حتى تعتاد على المكان.

ستقابل الإخوة أيضًا الموجودين في الدير، الإخوة الذين يعملون هنا بالطبع، أرجو منك أن تلقي التحية عليهم، فإنهم مسرورون

للغاية لاستقبال ضيف جديد. أما الآن سأتركك لتشعر بأنك في منزلك وسأعود ببعض الطعام والشراب.

كانت الغرفة هادئة، بينما استدارت الشمس لتشرق على الجدار الأبيض والغطاء الأبيض للسرير ذي الإطار الحديدي. وكانت النافذة مفتوحة قليلًا، حيث كان بامكاني سماع صوت الأجراس من بعيد. وللحظة ظننت أنني سأبكي. وبدلًا من ذلك، وبينما بدت لي الجدران وكأنها تلمع وتنطوي على نفسها مثل مجموعة من البطاقات أغمي على عند قدمي الأخ جان مارك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الحادي عشر

استيقظت لأجد نفسي مستلقيًا على السرير، وأمامي الوجه اللطيف والقلق للسيد مسؤول الضيافة ينظر إليّ، بينما كان هناك راهب آخر على جانبي الأيسر ممسكًا بمعصمي يقوم بقياس النبض، وهو رجل أكبر سنًّا له بشرة مجعدة وعينان زرقاوان.

«والآن، سيد سنو، استلقِ ساكنًا، استرخِ، لقد أفزعتنا بشدة. هذا الطبيب الخاص بنا (دوم بينوا)، لغته الإنجليزية أسوأ قليلًا من لغتي».

جاهدت في محاولتي للجلوس، لكن الرجل العجوز أوقف تلك المحاولة برفق، وهو يقول: «مهلًا، لا تتعجل».. فاستلقيت مجددًا، وقد كان بإمكاني رؤية قمة الجبل والسماء الزرقاء النقية من خلال النافذة مما جعلني أشعر بالهدوء والسلام بشكل غريب.

وفي نهاية المطاف، قرر دوم بينوا أنني قد تجاوزت آثار الإغماء المفاجئ الذي أصابني وسمح لي بالجلوس، حيث كانت هناك صينية طعام على المنضدة بجانب النافذة مع إناء من الماء والتي ذهبت إليها بعد أن غادر الرجلان وانتابني شعور بالجوع فجأة.

وقال مسؤول الضيافة إنه يجب أن أستريح بعد الظهر، وأن أنام إن أمكن وأنه سيعود لاحقًا لفحصي، وإذا وافق الطبيب سيصطحبني إلى موعدي مع أمين المكتبة.

أكلت وعاءً من حساء الخضار الدسم الذي يتخلله طعم الكرفس بقوة وبعضًا من الجبن الكريمي الأبيض والخبز الطازج وسلطة

صغيرة مع وعاء من الكرز والعنب. وفكرت أن مصدر ذلك الماء يجب أن يكون نبع في الجبال، حيث كان يتمتع بالبرودة الجلية إضافة إلى الطعم الطازج الذي لا تتمتع به سوى تلك المياه.

شعرت أنني بحالة جيدة تمامًا الآن لكنني أشعر بالدوار قليلًا. افترضت أنني قد أغمي علي في أعقاب رحلة السيارة المروعة في الصباح على الرغم من أنني لا أتذكر كوني فقدت الوعي في حياتي من قبل.

لاحظت وجود احمرار خفيف في أعلى ذراعي، حيث ربما يكون دوم بينوا قد قام بقياس ضغط الدم، يبدو أنه قد تم الاعتناء بي بعناية.

وعندما أكلت، نظرت في الرسائل التي تركت لي. كانت الأولى من أمين المكتبة يقترح عقد اجتماع في ذلك المساء، حيث سيكون سعيدًا باطلاعي على كل من مجموعة الأعمال الكاملة لشكسبير وأي كتب أخرى قد أرغب في رؤيتها. كما أنه مرحبًا بي أيضًا في زيارة معمل صنع أغلفة وتجليد الكتب، بينما كانت رسالة رئيس الدير موجزة ورسمية ومهذبة، حيث إنه رحب بي ببساطة، وتمنى أن يتمكن من رؤيتي في وقت ما أثناء إقامتي.

كان الجدول الزمني الذي تمت كتابته لإعطائي فكرة عن أعمالهم التي تقام على قدم وساق منظم للغاية، كان جدولًا رائعًا، حيث كان هناك قداس يومي، وجميع الشعائر الدينية المعتادة والكثير من الوقت للصلاة والتأمل. فيما كان الرهبان يأكلون معًا مرة واحدة فقط في اليوم في المساء، أما غير ذلك فيتناولون الوجبات في عزلة في حجراتهم، أو في عملهم.

كانت هناك خريطة للدير من الداخل والخارج موضحة بخط أحمر مرقط أو صليب يشير إلى المناطق التي لا يمكنني الدخول إليها. لكنني كنت أمتلك حرية السير في أي مكان تقريبًا بالخارج، حيث يمكنني الذهاب إلى الكنيسة وقاعة الطعام والمكتبة والمناطق العامة في الأديرة. كما يبدو أنني أمتلك حرية زيارة المطابخ وورش النجارة والأقبية ومعمل إنتاج الألبان وحظائر الأبقار أيضًا إذا رغبت في ذلك.

وعندما بدأت في تناول الطعام اعتقدت أنني سأمشي في الأراضي القريبة من المباني بمجرد أن أنتهي من آخر لقمة. لكن ما إن بدأت في تناول الفاكهة أصابني تعب جعل رأسي يصاب بالدوار، وشعرت بثقل في أطرافي كما لو كانت مليئة بنشارة الخشب.

فتحت النافذة أكثر حتى انبعث الهواء العذب من الجبل مع نفحة من رائحة أشجار الصنوبر. ثم استلقيت وعلى صوت الأجراس اللطيفة حول أعناق البقر غفوت في أعمق نوم عرفته على الإطلاق.

ومن ثم استيقظت على ضوء الشفق البنفسجي الخافت، حيث خرجت النجوم من وراء الجبل، وكان القمر مكتملًا. فاستلقيت ساكنًا مستمتعًا بالصمت الرائع. فيما بدا لي أن القيادة في الصباح خلال تلك العاصفة والرعب الذي أصابني من احتمالية دهس الطفل ينتميان إلى وقت آخر. فقد شعرت كما لو كنت في هذه الغرفة الصغيرة المطلية باللون الأبيض والهادئة لأسابيع.

وبعد لحظات قليلة سمعت صوت الجرس في مكان ما في الدير داعيًا الرهبان إلى مزيد من الصلاة، وإقامة تراتيل أكثر شعائرية. فاستيقظت بحذر لكنني لم أعد أشعر بالدوار على الرغم من أن

أطرافي كانت لا تزال تشعر بالثقل. فذهبت إلى النافذة لأستنشق هواء المساء، بينما وضعوا لي إبريقًا من الماء المنعش على الطاولة، فاحتسيت كوبًا منه والذي كان له نفس قدر حلاوة المذاق لكأس من النبيذ الفاخر.

شاهدت السماء وهي تعتم والنجوم تزداد سطوعًا. وتساءلت عما إذا كان بإمكاني إيجاد طريقي للخارج، حيث شعرت برغبة في المشي لمسافة صغيرة على الأقل، ولكن عندما كنت أفكر في ذلك سمعت صوت خطوات سريعة من السيد مسؤول الضيافة والذي دخل مبتسمًا. لقد كان رجلًا يبدو وجهه محاطًا بشعاع دائم من الترحاب والروح الطيبة.

قال: «سيد سنو، مساء الخير، مساء الخير إنه لأمر جيد، فقد كنت آتي وفي كل مرة...»، ومن ثم قام بعمل لفتة معبرة عن النوم بإغماض عينيه ووضع يديه إلى جانب رأسه.

فقلت له: «شكرًا لك، نعم. لقد نمت مثل مولود جديد».

«وهكذا، يبدو أنك صرت بخير كما كنت، لكن طبيب العيادة سيعود مرة أخرى ليتأكد».

«لا أنا بخير، من فضلك لا تزعج الأب مرة أخرى. هل فات أوان لقائي مع أمين المكتبة؟».

«نعم، أخشى ذلك، لكنه سيسعد بلقائك صباح الغد. اعتبرني لم أوقظك، هكذا سيكون الأمر أفضل».

«كنت أتساءل عما إذا كان بإمكاني القيام بنزهة قصيرة في الخارج؟ أشعر أنني بحاجة إلى بعض الهواء النقي».

«آآآ. الآن، دعني أرى. لدي طقس ديني سيقام قريبًا، لكن نعم تعال معي تعال معي، استنشق القليل من الهواء إنه لطيف للغاية. وسوف آتي لأخذك إلى الداخل بعد ذلك الطقس الديني، وبعد ذلك سوف أحضر لك عشاءك. فنحن نخلد إلى الفراش مبكرًا كما ترى، ثم غدًا ستأكل معنا في قاعة الطعام، ضيفنا.. تفضل..». قالها وهو يفتح لي الباب، ومن ثم خرجنا من الغرفة ونزلنا الممر.

أخذنا الدرج الحجري إلى دير طويل وبارد، وبينما كنا نسير فيه سمعت صوت خطوات الأقدام القادمة من جميع الجوانب، كانت خافتة سريعة تطقطق على السلم الحجري، ثم ظهر الرهبان وأغطية رؤوسهم مرفوعة لأعلى، بينما تنحني رؤوسهم وتتربع أذرعتهم داخل الأكمام الواسعة كإحدى عاداتهم.

لكن مسؤول الضيافة قادني للخروج من باب في نهاية الدير إلى فناء واسع تحت النجوم، حيث أشار إلى باب في الحائط قائلًا: «هناك، تفضل، اخرج من هناك إلى حديقة الدير. ستجدها هادئة وممتعة، وسأعود لك بعد عشرين دقيقة. وبدءًا من يوم غد كما ترى ستجد أنه من السهل أن تشق طريقك الخاص».

ثم ابتسم وعاد إلى الوراء سريعًا خلف الرهبان الآخرين نحو الكنيسة والتي استمر صوت قرع الجرس قادمًا منها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني عشر

مشيت بين مباني الدير باتجاه واحد منها على مسافة بعيدة، حيث لم يكن أحد هنا باستثناء قطة صغيرة هزيلة لونها أبيض يتداخل مع الأسود، كانت تقف واهنة تتوارى في الظلام عند وصولي. نظرت بإعجاب إلى جمال النمط الذي صنعت منه الانحناءات في الحائط إضافة إلى حجارة الأرضية المتراصة. ولم يكن هنالك أي صوت. حيث اختفى صوت تراتيل الرهبان في شعائرهم في مكان ما في أعماق تلك الجدران.

وفي نهاية الدير خرجت عن الطريق إلى العشب المقطوع بإتقان، حيث وجدت نفسي في الحديقة على الرغم من أنها لم تحتوي على أحواض زهور أو أشجار. وقد توقفت، بينما كنت محاطًا بأبنية الدير من ثلاث جهات، ومن الجانب الرابع يتواجد بناء آخر، وكان هناك ما يكفي من ضوء القمر كي أرى من خلاله.

وتساءلت عن نوع البشر الذين لا يأتون إلى هنا لقضاء بضعة أيام فحسب سواء فارين أو قادمين لأجل شعور الانتعاش، وإنما يعيشون هنا مدى الحياة. إنهم رجال غير عاديين على ما يبدو، ومع ذلك فقد كان السيد المضيف رجلًا مليئًا بالحيوية والنشاط، وهو رجل قد تقابله في أي مكان.

تساءلت كيف سأجد أمين المكتبة ورئيس الدير، وبينما كنت أفكر في ذلك بدأت في تجاوز العشب، وعندما وصلت إلى وسط الحديقة الكبيرة المستطيلة لاحظت بركة الماء. والتي كانت أيضًا مستطيلة الشكل ومحاطة بالحجارة العريضة ولها مستويات مختلفة. وتساءلت عما إذا كانت هناك أسماك تعيش حياة سرية باردة في الأعماق.

وعندما اقتربت منها، ونظرت إلى الأسفل شعرت بأن اليد الصغيرة تمسك بي حتى ظننت أن قلبي سيتوقف. لكن هذه المرة لم تكن قابضة عليها ولم يكن هناك شعور بأنه يتم سحبي إلى الأمام، بل كانت كما في تلك الليلة الأولى مجرد يد طفل في راحة يدي.

فنظرت إلى الأسفل إلى ذلك الماء الساكن والداكن الذي استقر عليه ضوء القمر، وعندما نظرت رأيت شيئًا. وما رأيته كان واضحًا جدًّا وغريبًا جدًّا وحقيقيًّا لدرجة أنني لم أشك فيه بعد ذلك، بل لم أشك فيه مطلقًا منذ ذلك الحين.

رأيت وجه طفل في الماء والذي استدار للنظر إليّ مباشرة، حيث لم يكن هناك أي انعكاس على الماء، ولم يكن ضوء القمر يحيك بعض الحيل مع الظلال.

كان كل شيء ثابتًا لدرجة أنه لم يكن هناك أدنى تموج يعكر هدوء المياه، لم يكن من السهل تخمين عمره لكنه ربما كان في الثالثة أو الرابعة. كان لديه وجه مهيب وجميل جدًّا يحيط به شعره المجعد.

وكانت عيناه مفتوحتين عن آخرهما. لم يكن وجهًا لطفل ميت، بل كان طفلًا حيًّا يتنفس رغم أنني لم أر أي أطراف أو جسد، فقط الوجه. فنظرت في عينيه، ونظر إلى عيني، وعندما حدث ذلك اشتدت قبضة اليد الصغيرة حتى صرت بالكاد أستطيع التنفس، بينما كان لعيون الطفل تعبير خاص.

كانتا تتوسلان لي وتحثاني على شيء ما. فأغلقت عيني وعندما فتحتهما كان لا يزال هناك. وفي ذلك الحين كانت اليد الصغيرة تشد على يدي وشعرت بنفس محاولة الجذب المروعة التي

مررت بها من قبل لإلقاء نفسي للأمام في المياه. لم أتمكن من النظر إلى وجه الطفل؛ لأنني كنت أعرف أنني لن أستطيع رفض ما يريد، حيث كان يعتلي وجهه تعبير من الرغبة الشديدة والحاجة والذي لم أستطع الصمود أمامه. أغمضت عيني مجددًا لكن بعد ذلك أصبحت قوة الجذب قوية لدرجة أنني شعرت بالرعب من فقدان توازني. شعرت بالخوف والتوعك على حد سواء وراح قلبي ينبض ويسير الضعف في أطرافي أثناء ذلك.

وعندما ابتعدت عن بركة المياه مستعينًا بكل ذرة عزيمة بداخلي، تعثرت وسقطت إلى الأمام. وأثناء قيامي بذلك أمسكت بيدي اليسرى وحاولت إبعاد الأصابع الصغيرة عنها لكن لم يكن هناك شيء لأمسك به على الرغم من أن الشعور بهم لم يقل حدة.

قلت: «دعني وشأني، اذهب أرجوك. من فضلك اذهب».

فسمعت نفسي أتكلم، ولكن صوتي بدا غريبًا، فكنت أستمع لنحيب مزعج بينما كنت أعاني من أجل التحكم في معدل تنفسي. وما زالت اليد تسحبني وتحثني على الوقوف، تحثني على القيام بما تريدني أن أفعله والذهاب إلى حيث تريدني أن أذهب.

فصرخت: «دعني أذهب!» فارتد صدى صراخي بين الأديرة الصامتة حتى سمعت هتافًا وحركة متسارعة نحوي عبر العشب حتى كان فرير جان مارك راكعًا بجانبي وأخذني من كتفي ورفعني بأريحية إلى وضعية الجلوس، وهو يتمتم بصوت لطيف ويطلب مني أن أكون هادئًا.

وبعد لحظة تباطأت أنفاسي، وتوقفت عن الارتعاش شاعرًا بنسيم خفيف بارد جاء من الجبل على وجهي وتفوح منه رائحة

أشجار الصنوبر.

ومن ثم قال الراهب ووجهه مليء بالقلق: «قل لي، أخبرني ما الذي يزعجك. قل لي ما الذي يجعلك خائفا؟».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث عشر

لم يكن هناك مكان أكثر هدوءًا أو إثراءً للروح من المكتبة العظيمة في دير القديس ماثيو، فقد جلست في تلك البقعة الهادئة والرائعة في اليوم التالي قانعًا بأنني أحد أكثر الرجال حظًّا على وجه الأرض، ولم يبد أن أي شيء قد حدث لي سوى لدغة بعوضة على بشرتي.

كانت المكتبة مقامة في مبنى مكون من ثلاثة طوابق منفصلة عن البقية، ولها سلم حلزوني من الحجر يقودك من الأديرة أولًا إلى غرفة قراءة بسيطة بها مكاتب خشبية باهتة اللون، ثم يصل إلى غرفة بالطابق الأخير، حيث أخبرني أمين المكتبة عن احتوائه للكثير من الكتب والمخطوطات المقدسة في نسخ متعددة.

وهي الغرفة الأرقى بنوافذها الطويلة والضيقة التي تسمح بمرور الضوء الصافي، وبها دهليز خارجي على طول الطريق، الأمر الذي أذهلني بشدة، وإذا حاولت مقارنتها بأي مكتبة أخرى أعرفها فستحاكيها في تلك المساحة المذهلة مكتبة دوك همفري([5]) في بودليان، لكن مكتبة الدير كانت أكثر اتساعًا ولا تمنحك ذلك الشعور بالرهبة من الأماكن المغلقة.

في البداية، وقفت ببساطة أحدق في روعة الأرفف وعظمة المجموعة الضخمة من الكتب، وطريقة ترتيب الغرفة الكبيرة وتناسقها. والتي تبدو أنها حتى لو كانت جميع الكتب مجرد علب فارغة لظلت مثيرة للإعجاب. إلى جانب الأعمدة الحجرية الرفيعة ومكاتب القراءة الغائرة في المساحات الموجودة بينها، أما الأرضية فكانت من خشب لامع بلون العسل ويوجد صف من الطاولات. وفي ركن بعيد خلف حاجز خشبي منحوت يتواجد

مكتب أمين المكتبة، وعلى طول الطرف المقابل له هناك خزانات طويلة تحتوي كما علمت على أكثر المخطوطات غرابة في المجموعة.

لم تكن الخزانات مغلقة وعندما لاحظت ذلك ابتسم أمين المكتبة، فسألته: «ولكن لماذا؟»

بالطبع.. أي مكان آخر في العالم أفضل من هنا للحفاظ على الكثير من العناصر النادرة والثمينة في مأمن تمامًا من السرقة؟

وأما السبب الوحيد لإبقائهم بعيدًا عن الأنظار فهو حمايتهم من التلف.

جلب لي أمين المكتبة كتابًا رائعًا تلو الآخر بغرض إبهاجي فحسب، حيث المخطوطات المزخرفة والكتب المقدسة النادرة والأناجيل ذات الأغلفة الرائعة. لقد كان رجلًا عجوزًا، محني الظهر ويتحرك بخطوات بطيئة مثلما كان كل الرهبان يتحركون بوتيرة بطيئة ومحسوبة كما لو أن الاندفاع والعجلة لا يهدران الطاقة فحسب، بل أفعال لا تندرج تحت صفة الروحانية، حيث يتم إنجاز كل شيء دون أن يسرع أحد.

وكانت لغته الإنجليزية خالية من العيوب تقريبًا إذ أخبرني أنه قضى خمس سنوات في الدراسة في كلية سانت جون كامبريدج – كما أن علمه واهتماماته واسعة النطاق، حيث كانت السعادة بادية عليه بالتواجد في تلك المكتبة، وهو لديه تفويض خاص للتحدث معي لكنه لم يتفوه بالكلمات كثيرًا، مثلما كان يتحرك من مكان لآخر.

لقد نمت جيدًا، نوم خالٍ من الأحلام بعد زيارة متأخرة من الطبيب الذي أعطاني ما وصفه بالفرنسية بأنه دواء يساعد على

النوم، كان سائلًا أخضر غامقًا موضوعًا في كوب طبي. لقد فحصني وبدا مقتنعًا بأنني لست مريضًا مرضًا جسديًّا، ومن ثم أحضر الأخ جان مارك إفطاري وأخبرني أنه تم التحدث إلى رئيس الدير، وأنه يود رؤيتي في الساعة الثانية لكنه شعر أن زيارة المكتبة ستكون أفضل دواء. وقد كان محقًّا في ذلك.

«والآن» قالها أمين المكتبة دوم مارتن، وهو يقترب من طاولة القراءة التي كنت أجلس فيها في إحدى الزوايا، والتي تمكنني من النظر إلى هيكل المكتبة بينما تتخللها أشعة الشمس التي ينعكس ضوؤها في شكل معينات على الأرضية الخشبية. وتنبعث رائحة الورق والجلد والعمر والحكمة من المكان مثله مثل كل هذه الأماكن، والتي تعد بمثابة شراب مسكر قوي لأي شخص ترتبط حياته بالكتب كما كانت حياتي منذ زمن طويل.

«ها هو. ربما تكون قد شاهدت واحدًا من هؤلاء من قبل بالطبع هناك أكثر من مائتين في العالم لكني رغم كل شيء لا أعتقد أنك رأيت مثل هذا بالتحديد. أعتقد أنك على وشك الحصول على مفاجأة رائعة».. وابتسم لي ووجهه العجوز يمتلئ بنوع من البهجة وهو يحمل الكتاب بين يديه.

لقد رأيت بالفعل أعمال شكسبير من قبل. فكما قال إنها ليست نادرة على نحو خاص، وقد نظرت عن كثب في العديد منها داخل إنجلترا وخارجها. كما إنني قضيت أيضًا بعض الوقت قبل المجيء إلى القديس ماثيو في فحص عملين موجودين بالفعل حتى أتمكن من الحكم على إذا كان ما سأراه هنا حقيقيًّا. ولم يكن ذلك مستحيلًا. إنه من غير المعروف الآن مكان وجود سوى بضع مئات من النسخ، ولكن ربما كان طبعة الكتاب تصل إلى

٧٥٠ نسخة حتى لو لم ينج معظما، كما أن العديد منها قد لا تزال مدفونة في مكتبة ما، ربما مكتبة مثل هذه.

كان الكتاب الذي حمله دوم مارتن بين يديه الممدودتين كبيرًا، قام بوضعه بعناية أمامي على المكتب، لكنه لم ينتظر كي أتفحصه، حيث دق أحد الأجراس التي لا تعد ولا تحصى داعيًا إياه إلى الصلاة، فخرج من الغرفة الكبيرة وسمعت خطواته وهو ينزل على الدرج الحجري، بينما استمر الجرس في الرنين، وتبعه راهبان آخران كانا منخرطين في بعض الأعمال البسيطة وتُركت وحدي لأتفحص ما كنت أعرفه في غضون لحظات قليلة، وبعد قليل من الشك تيقنت أن ما بين يدي نسخة جيدة جدًّا من أعمال شكسبير، وقد كان الكتاب وحده مثيرًا بدرجة كافية ولكنه بالإضافة إلى ذلك ففي صفحة العنوان، حمل الكتاب توقيع بن جونسون. بالطبع سأحتاج إلى التحقق منه جيدًا لكن بالبحث في ذاكرتي صرت متأكدًا من صحة التوقيع. إذن هذه هي نسخة من أعمال شكسبير التي حملتها بين يدي. لقد كانت لحظة رائعة.

قضيت بعض الوقت في تقليب الصفحات بعناية والاستمتاع بالكتاب آملًا أن أتمكن من الحصول عليه للسيد إدجار ميريمان. وبعد لحظة نظرت إلى الأعلى في أرجاء تلك الغرفة الجميلة وانتابني شعور جيد، حيث شعرت بهدوء تام إلى جانب الأمان أيضًا لأنني لم أعد أشعر بالأمان حقًّا في أي مكان بالخارج خوفًا مما قد يحدث، وفكرة الشعور بيد صغيرة تتسلل إلى يدي. ومن ثم أعدت توجيه انتباهي سريعًا إلى الكتاب الموجود قبالتي.

قضيت بقية الصباح بشكل مريح في المكتبة قبل العودة إلى غرفتي في الساعة الواحدة عندما أحضر مسؤول الضيافة طعامي البسيط. وفي الساعة الثانية عاد ليرافقني إلى رئيس الدير. لم أكن

قد غادرت المبنى منذ الليلة الماضية على الرغم من أنني استطعت أن أرى كم كان نهارًا جميلًا، وكيف بدت السماء الساطعة والهواء الصافي الذي من شأنه أن يحثني على الخروج. لكني عندما فكرت في المغامرة خارج جدران الدير الآمنة شعرت بدوامة من الخوف مرة أخرى.

كان رئيس الدير على عكس الهيئة الذي تخيلتها. فقد كنت أتوقع رجلًا كبيرًا مهيبًا وقورًا طويل القامة لكنه كان صغيرًا ذا وجه أنيق، وعينين عميقتين يتحدث الإنجليزية بشكل جيد، وكان ينصت باهتمام ووجهه خاليًا من أي تعبير إلى حد ما، ولكن بعد ذلك كان وجهه يتحول إلى ابتسامة دافئة وجذابة. حتى شعرت بالدفء والاطمئنان من قبله وبعد عشر دقائق بصحبته أو نحو ذلك أدركت أنه كان رجلًا يتمتع بمظهر خارجي غير جذاب لكنه يخفي تفهمًا وحكمة إنسانية كبيرة.

تحدثنا عن العمل لبضع لحظات في مكتبه المرتب، تحدثنا عن بيع كنوز الدير والأعمال الكاملة لشكسبير على وجه الخصوص وعلمت أنه من المحتمل أن يتم ترتيب الأمور بسلاسة. لقد كانت التفاصيل بشأن بيع أي شيء على الإطلاق طويلة ودقيقة وربما مجحفة أيضًا، ولكن بمجرد اتخاذ القرار سيكونون عمليين للغاية ويرتبون الأمور بكفاءة حيث عليهم ضمان وتأمين صيانة الدير والحفاظ عليه في المستقبل.

«سيد سنو، أريدك أن تشعر أنه يمكنك أن تبقى معنا حتى تشعر أنك بحالة جيدة مرة أخرى. سنعتني بك بالطبع. فهذا مكان يساعد على الشفاء بدرجة كبيرة».

«أنا أعلم، أشعر بذلك وأنا ممتن جدًّا لك».

انتظر بهدوء وصبر، وبينما كان ينتظر شعرت برغبة في إخباره بكل ما حدث وسرد الأحداث الغريبة والحديث عن مخاوفي، وأن أطلب منه ولكن ماذا أطلب؟ أن يصدقني؟ أن يدعني أشرح له؟

لم يكن هناك صوت في الغرفة حتى تساءلت عما يفعله الرهبان الآن وافترضت أنهم في حجراتهم الخاصة يصلون ويقرأون الكتب المقدسة ويتأملون. ومن بعيد على سفح الجبل، بينما يأتي صوت رنين الأجراس المعلقة حول أعناق البقر. نظرت إلى رئيس الدير وقلت له: «إنني أتعجب من شيء! أشك في إصابتي بالجنون أو أنني ملاحق بطريقة ما.

كل ما أعرفه هو أن الأشياء تستمر في الحدوث لي دون أن أفهمها، لقد كنت رجلًا سليمًا وهادئًا تمامًا. حتى بدأ كل هذا».

كانت عيناه منصبتين على وجهي، ويداه كانتا ساكنتين على جانبي كرسيه، بينما كان رداؤه بغطائه الخلفي ذي الطيات المثالية كما لو كان قد رسمها فنان محترف، لم يحثني على الحديث، حيث شعرت أنه سيتقبل أيًّا كان ما سأختار فعله سواء تركت الغرفة الآن دون أن أتفوه بالمزيد أو وثقت به أو طلبت مشورته.

بدأت أتحدث، ربما لم أكن أنوي إخباره بكل شيء حتى تفاصيل انهيار أخي لكني وجدت الأمر ينتهي بي وأنا أفعل ذلك، نهض ذات مرة وسكب لي كوبًا من الماء من إبريق موضوع على رف حجري، فاحتسيته بشراهة قبل الاستمرار.. بينما كان ضوء الشمس الذي كان متسللًا عبر مكتبه يتحرك بعيدًا، رن الجرس مرتين لكن رئيس الدير لم ينتبه لذلك، فقد كان جالسًا على

كرسيه وعيناه ترتكزان علي، وتعبيراته مليئة بالقلق والاستماع والإنصات.

انتهيت من الكلام وأنا أشعر أنني استنزفت كل طاقتي. وكنت أعلم أنه عندما أعود إلى غرفة الضيوف أنني سأغط في نوم عميق مرة أخرى بعدما اعتدت حدوث ذلك في هذا المكان.

جلس رئيس الدير مستغرقًا في التفكير لبضع لحظات، بينما أسندت ظهري إلى المقعد شاعرًا بدوار خفيف لكنني كنت مرتاحًا خاليًا من المتاعب بطريقة ما، كما لو أنني قد اعترفت بقائمة من الخطايا الآثمة للكاهن.

حتى قلت له في نهاية المطاف: «هل تعتقد أنني مجنون؟».

لوح بيده باستخفاف قائلًا: «لا، على الإطلاق، أعتقد أن أشياء فظيعة قد حدثت لك وأنت تأثرت بها بشدة. لكن ما هي هذه الأشياء ولماذا؟ هل يمكنك أن تخبرني أنه لم يحدث شيء مثل هذا في حياتك حتى قمت بزيارة هذا المنزل بالصدفة؟».

«لم يحدث شيء مثل هذا أبدًا، أنا متأكد تمامًا من ذلك».

«وهذه اليد؟ ألم تبدو يد الطفل مزعجة بأي شكل من الأشكال في بداية الأمر؟»

«لا، إن الأمر يبدو غريبًا للغاية».

«بلا شك».

«لكن لم يمر وقت طويل حتى شعرت بالتهديد من قبلها! كأنها تمتلك رغبة شديدة في إلحاق الأذى بي، أو دفعي إلى إيذاء نفسي.. في بركة المياه وهنالك فوق الجسر في بحيرة الوادي».

«ولكن لماذا؟» صرخت بصوت عال.. «لماذا يريد هذا الشيء أن يؤذيني؟»

«أعتقد أنه يمكنك ألا تسعى وراء معرفة سبب كل ذلك مطلقًا، وأن تصلي داعيًا أنه سيتعب من الفشل ويتخلى عما يرغب في فعله أو يمكنك اختيار أن تكتشف حقيقة الأمر، إذا كان كل ذلك ممكنًا، وهكذا...»

«تريدني أن أحبط محاولات هذا الشبح؟»

«نعم».

«هل تصدق في وجود هذا الشيء أو هذا الطفل مهما كانت هويته؟ هل تعتقد أنه موجود بالفعل؟»

هز كتفيه قائلًا: «الأرواح موجودة، بلا شك، الخير موجود والشر موجود. وربما تكون روح ذلك الطفل مضطربة وغير سعيدة. ربما لديها حاجة تسعى إليها.. أعتقد أنك عانيت الأمرين، وسيكون من الجيد أن تبقى هنا وتدعنا نساعدك ونجدد طاقتك».

«ولكن هنا ومن بين جميع الأماكن بالتأكيد ما كان يجب أن يحدث هذا مرة أخرى؟ إذا لم أكن بأمان هنا...».

«أنت آمن تمامًا هنا، لا تشك في ذلك، سوف تحصل على كل القوة التي تحتاج إليها، إلى جانب حماية الرب وأوليائه ودعواتنا من أجلك. أنت محاط بجدران تشهد الصلوات يا سيد سنو، لا تنسى ذلك».

«شكرًا لك، سوف أحاول فعل ذلك».

«إذا كنت تشعر بالراحة والقدرة على المجيء هذا المساء، انضم إلينا في الكنيسة الصغيرة من أجل صلاة الليل. ستمنحك سلامًا عظيمًا وقوة جبارة لمكافحة تلك المخاطر، وإذا قررت مواجهة ذلك الشبح ومواجهة مخاوفك فستكون أيضًا تحت الحماية خلف درع صلواتنا».

«ماذا تعتقد أنني يجب أن أفعل حقًّا، أيها الأب؟».

«بالنسبة لي، كل شيء يصبح أفضل عند مواجهته. والتخلص من الألم الناتج عنه، ولكن أنت فقط من يمكنه اتخاذ هذا الخيار».

نهض من مكانه في حركة رشيقة لجسده وردائه معًا، ورفع يده اليمنى ليضع علامة الصليب فوقي، ثم قادني نحو الباب. وعندما غادرت وقف يراقبني وأنا أسير في الدير، ونظرت إلى الوراء لأرى كيف كان تعبير وجهه جادًّا، لقد صدقني. لقد استمع باهتمام ولم يتجاهل أي شيء مما قلته، ولم يحاول شرح أي شيء. ولذلك كنت في غاية الامتنان له.

عدت إلى غرفتي وخلدت إلى النوم، لكن عندما استيقظت أردت استنشاق الهواء واستطعت الوصول للخارج بعدما انعطفت مرتين من طريق خاطئ أسفل الممرات الحجرية وتوجهت إلى الفناء، حيث سرت في الاتجاه المعاكس للمسار الذي سلكته الليلة الماضية، وذهبت بدلًا من ذلك عبر البوابة الموجودة في الجدار متجهًا إلى المدخل الرئيسي ومن هناك اتجهت نحو المنحدرات المغطاة بأشجار الصنوبر والمسار الضيق الذي يرتفع بشدة، وكنت متأكدًا من أنه سيؤدي في النهاية إلى إحدى قمم الجبال.. وأنا لست متسلق جبال.

مشيت ربما لمدة عشرين دقيقة على طول الطريق الضيق الذي يقع بين الأشجار العالية المعتمة، كانت الأرض ناعمة مغطاة ببساط من الصنوبر فلم تصدر قدمي أي صوت، وعندما نظرت لأعلى رأيت بقعًا بنفسجية زرقاء من السماء فوق قمم الأشجار. حتى بلغت مساحة خالية، حيث تم قطع شجرتين أو ثلاث أشجار منها، وكانت ملقاة على الأرض. وجلست حيث لم يكن هناك أصوات للعصافير ولا حركة للحيوانات، فقط العناكب الصغيرة والحشرات الأخرى التي تسير على جذوع الأشجار وعند قدمي. وأدركت حينها أنني كنت أنتظر شيئًا ما، حتى مددت يدي وركضت إحدى العناكب الصغيرة نحوها، لا شيء آخر.

ومن ثم قطعت طريقي بعناية عائدًا إلى بدايته. لكني عندما مررت من البوابة سمعت أصواتًا لم يكن مصدرها من داخل الدير، بل من مكان ما خارج الفناء الخارجي. فحاولت السير في طريق عبر الأديرة حتى اقتربت من الحديقة الداخلية، حيث كان هنالك مجموعة من حوالي عشرة رهبان يقفون حول البركة. وكان أحدهم يحمل مبخرة تتأرجح برفق وتبعث سحبًا ناعمة من البخور التي تطفو فوق سطح الماء. بينما يحمل رجلًا آخر صليبًا. أما الباقون فكانوا يغنون التراتيل ممسكين بكتبهم أمامهم ورؤوسهم منحنية قليلًا.

وقفت بلا حراك حتى توقف الغناء، ثم رأيت رئيس الدير يرفع يده كي يرسم إشارة الصليب. وأدركت أن تلك نفسها بركة المياه التي رأيت فيها وجه الطفل والتي تم دفعي إليها، وها هم يقومون بمباركتها لجعلها آمنة.. كنت سعيدًا من رؤية ذلك، ولكن عندما عدت في طريقي عبر الأديرة أدركت أن احتياطات رئيس الدير لم تكن ضرورية؛ لأنه لم يكن أي من الرهبان أو حتى أي

شخص آخر ممن يزورون هذا المكان الهادئ والمقدس في خطر، مهما كان ما أتى هنا قد جاء بسببي. وعندما أغادر سيغادر أيضًا. سيغادر معي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع عشر

٤ شارع راجيد ستاف أكسفورد

آدم

لدي أخبار رائعة. أحسنت! كنت متأكدًا من أنك ستلتقي أنت والرهبان وجهًا لوجه ويسعدني أنك تأكدت من أنها بالفعل مجموعة الأعمال الكاملة وأنك تمكنت من تأمينها. يا له من عميل محظوظ.

تعال إلى أكسفورد قريبًا مرة أخرى.

أطيب أمنياتي، فيرجوس

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رافينهيد ديتشفورث ويست ساسكس

عزيزي السيد سنو

نتطلع بشدة إلى رؤيتك هنا يوم الأربعاء المقبل لتناول العشاء والمبيت وإخبارنا عن زيارتك لفرنسا. إن زوجي ينتظر بفارغ الصبر، وفي هذه الأثناء وبعدما صرت أمتلك المزيد من الوقت مع تقدمي في العمر أكثر مما ينبغي تعمقت قليلًا في قصة البيت الأبيض ووجدت قصاصة أو اثنتين من المعلومات التي ربما يجب تجميعها معًا. ولكن قد لا يكون الأمر ذا أهمية بالنسبة لك، وبالطبع يجب أن تخبرني إذا كان هذا هو الحال.

نتوقع قدومك ما بين الساعة الخامسة والسادسة صباحًا.

مع أطيب أمنياتي

أليس ميريمان

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«مرحبا. هذا آدم سنو. آسف لكوني غير متاح الآن. من فضلك اترك لي رسالة وسأرد على مكالمتك».

«أنا هوجو. لست متأكدًا من إمكانية عودتك، لقد كنت أفكر فيما قلته لي عندما أتيت إلى هنا آخر مرة. أردت فقط أن أقول إنني متأكد من أنه لا شيء يذكر، ربما كان لديك فيروس ما، فكما تعلم قد يصاب بعض الناس بالاكتئاب بعد الأنفلونزا، هذا النوع من الأشياء. لذلك إذا كنت قلقًا حيال الأمر فلا داعي لذلك، أنا متأكد من أنه لم يكن شيئًا يذكر. حسنا هذا كل ما أود قوله، اتصل بنا من وقت لآخر».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس عشر

كان علي العودة بالطبع، وبمجرد أن رتبت أموري لزيارة السيد إدجار ميريمان وإخباره حول حصولي على مجموعة الأعمال الكاملة انتابني شعور عميق سيطر على كياني بأكمله، أشعر به عندما أنام وعندما أستيقظ، حيث كان يقبع في ذهني طوال اليوم حتى إنني أشعر به في أحلامي. ولم أستطع مقاومة تلك القوة أيًّا كانت ماهيتها حتى إنني لم أحاول. فقد كنت خائفًا من ذلك وأعتقد أنني أيقنت الآن أن أفضل شيء يمكنني فعله للحفاظ على سلامة قوتي العقلية هو الطاعة. وتمنيت أن يستمر الرهبان في الصلاة من أجل حمايتي.

هذه المرة لم أسلك طريقًا خاطئًا، ولم يحدث ذلك بمحض الصدفة. إذ إنني حددت رحلتي على خريطة قبل يومين من الانطلاق وقطعت طريقي بعناية عبر الأميال القليلة الماضية، حتى أعرف بالضبط إلى أين أنا ذاهب والمدة التي سأستغرقها منذ غادرت الطريق الرئيسي. هذه المرة قدت السيارة ببطء بين ضفاف النهر، بينما تقودني جذوع الأشجار الضخمة نحو الظلام، وكنت على دراية بكل شيء كما لو أنني تناولت بعض الأدوية المنشطة للعقل، فقد رأيت كل شيء بوضوح بداية من تفاصيل كل جذر شجرة موجودة في الأرض وحتى الفروع المتدلية منها.

كان يومًا هادئًا، ولكن السماء تمتلئ بالغيوم، حيث إنه في وقت سابق تساقط القليل من المطر، ولكن بحلول الوقت الذي ترجلت فيه من السيارة في أرض خالية من الأشجار كان الهواء رطبًا ولطيفًا، لقد كنت مستعدًّا حيث اشتريت زوجًا من

السكاكين التي تقطع الأسلاك وبعض المقصات. فلن أسمح لتلك الشجيرات أو السياج أن تمنعني من الدخول.

على أي شيء سأعثر هناك؟ لا أعرف كما أنني حاولت ألا أطلق العنان لمخيلتي، قررت أن أتبع الصوت المُلح الذي أخبرني أنه يجب علي أن أعود وبمجرد الوصول إلى هناك سأفهم.. قطعًا سأفهم.

كل شيء يبدو كما كان من قبل. وقفت للحظة بجانب السيارة، ثم توجهت إلى البوابة ودفعتها كي تنفتح، وشعرت بها تحك الأرض تمامًا كما في زيارتي السابقة، ومن ثم سرت باتجاه كشك التذاكر القديم. كانت الملاحظة المكتوبة لا تزال معلقة هناك، والحاجز الحديدي أيضًا لا يزال ساقطًا في الأسفل، وقفت وانتظرت لحظة. أحمل السكين الذي يقطع الأسلاك في يدي اليسرى، بينما لم تكن يدي اليمنى ممسكة بأي شيء. وبعد عدة دقائق لم يحدث شيء حيث ظلت يدي فارغة. وفي إيماءة متعمدة أو ربما مجرد ردة فعل قومت بثني أصابعي. لكن لم تكن هنالك استجابة.

كان الهواء عليلًا وكانت الشجيرات المورقة على كلا الجانبين، وأوراقها تتلألأ بفعل الرطوبة جراء المطر في وقت سابق. ارتديت حذاءً طويلًا مخصصًا لمناخ مثل هذا حتى أتمكن من شق طريقي عبر العشب الطويل دون عوائق. حتى بلغت أرضًا خالية من الأشجار، حيث يتواجد المنزل. البيت الأبيض. فارغ، شبه مهجور والزجاج المكسور في واحدة أو اثنتين من النوافذ، بينما كانت حجارة الفناء أمامه سميكة تحمل طبقات من الطحالب المخملية.

التففت بعيدًا نحو بوابة خشبية منخفضة أخرى، والتي بها قفل قديم وسلسلة صدئة تمر من خلاله، ويلمع كلاهما بفعل الرطوبة. لكن القفل كان مفتوحًا والبوابة بالية لدرجة أنها انفتحت في يدي في الحال ومررت من خلالها، وكان أمامي طريق يقودني بين بعض السياج القديمة المغطاة بشجر الصنوبر. قمت بالسير فيه، حيث كان بإمكاني أن أرى جيدًا لأنه على الرغم من حقيقة أن السماء ملبدة بالغيوم فإن الساعة كانت حوالي الخامسة والنصف كما أن هناك فيضًا من الضوء المتبقي. قادني الطريق بشكل مستقيم، وفي النهاية هنالك ممر محفور بين السياج، وعلى الرغم من أن شجر اللبلاب كان ملتفًّا حوله، ولكن الطريق كان سالكًا ولم أكن بحاجة إلى المقصات التي أحضرتها.

واصلت السير، ونزلت أربع درجات مصنوعة من الطوب محفورين في نصف دائرة، ثم وجدت أنني قد خرجت إلى مكان من الواضح أنه كان منطقة خضراء كبيرة ذات جدار مرتفع في نهايتها، وبقايا زهور وأعشاب كثيفة، كانت هناك أشجار الفاكهة والتفاح والكمثرى العطبة والتي تشكل طريقًا للسير نوعًا ما، وكنت أعلم أن هناك شروطًا مناسبة لزراعة هذه الأشياء. أما على الجانب الآخر، فقد كانت الأعشاب مرتفعة جدًّا لدرجة أنها تخطت قمة حذائي والتي تختلط مع بعض نباتات «القراص» الفاسدة، وكان هناك سياج آخر طويل والذي شكل مدخلًا آخر، فاستدرت إلى المسار الذي ينحرف إلى طريق الغابات. ذهبت في الاتجاه المعاكس نحو بوابة مفتوحة في جدار عالٍ، وذهبت إلى الجانب الآخر منها حيث وجدت ما يبدو أنه كان عبارة عن منطقة تحوي بركًا تم حفرها خصيصًا بين المسارات المليئة بالحصى. وتذكرت صور حدائق تعود لعصر الملكة إليزابيث

الأولى، حيث كانت هناك أشجار صغيرة مزروعة في وسط كل بركة رغم أن معظمها بدا ميتًا. انحنيت وقطفت ساقًا نحيلًا من شجيرة بجانبي وكسرته بين أصابعي. وبين الحين والآخر كنت أتوقف وأنتظر لكن لم يكن هناك شيء، لا شيء يتحرك ولا صوت لتغريد الطيور.

كان المكان موحشًا لكنني لم أشعر بالقلق أو الخوف بأي شكل من الأشكال، إذ يبدو أنه لا يوجد شيء غريب في هذه الحديقة المهجورة، بل شعرت بالحزن لأنها كانت ذات يوم مكانًا جميلًا مبهجًا مليئًا بالحيوية والنباتات المتنوعة، إضافة إلى البشر والذين نظرت حولي محاولًا تخيلهم وهم يتجولون بها وينحنون لينظروا عن كثب إلى الزهور مبدين إعجابهم بها، ويمرحون في أزواج أو في مجموعات صغيرة.

أما الآن، فلم يكن هناك أحد، وكانت الطبيعة تستعيد كل شيء وتساءلت: هل في غضون بضعة سنوات أخرى سيتبقى أي شيء يدل على أنه كانت هناك حديقة على الإطلاق؟

كان الصمت غير عادي، الصمت ذاته الذي شعرت به في أراضي الدير ولكن هنا لم تكن هناك أجراس الأبقار اللطيفة التي تطمئنني من مسافة قريبة. تساءلت: أي طريق يجب أن أسلكه؟ فقد جئت إلى هنا لأنه لم يكن لدي خيار آخر، لكن ماذا بعد؟

وكما لو أنه ردًا على تساؤلاتي، فقد تسللت اليد الصغيرة إلى يدي وأمسكت بها بسرعة وشعرت بنفسي اندفع للأمام عبر العشب الطويل نحو السياج البعيد، حيث كان صوت الخشخشة الناعمة التي يصدرها حذائي وأنا أسير يكسر حدة الصمت، ثم ظننت أنني سمعت صوت شيئًا آخر ورائي مباشرة والتفتت لكن

لم يكن هناك شيء. ربما كان هنالك أرنب أو قطة ضالة تتبعنا، وأستخدم صيغة الجمع لأن ذلك ما كنت أشعر به الآن دون أدنى شك فقد كان هناك اثنان منا.

وصلت إلى جانب بعيد إلى أن بلغت قوس من شجر الصنوبر القاتمة وتوقفت بداخله. وبالنظر إلى الأمام كان بإمكاني أن أرى أنني كنت على وشك الدخول إلى حديقة أخرى، حديقة غائرة على بعد عشرات الخطوات من قدمي، والتي كانت شبه دائرية ومحطمة مع بعض الأعشاب التي تنمو بين الشقوق. أما على الجانب البعيد كانت هنالك شجرة كبيرة من خشب الأرز، بينما يتواجد مسار مليء بالحصى على طول الطريق.

لم يكن السياج كبيرًا، لكن الشجيرات تشكل دائرة مغلقة مثل الجدران العالية المظلمة، وبسبب تلك السياج والأشجار من جهة أخرى تسلل الضوء على نحو أقل من الفضاء المفتوح الواسع الذي تركته للتو وبالتالي فإن العشب في الوسط لم يكن ناميًا، بل كان لا يزال قصيرًا مثل عشب أخضر على الرغم من كونه تالفًا بفعل الأعشاب الصفراء والمستنقعات الجافة هنا وهناك، حيث تظهر منها الأرض أو الحجارة، مثل وضوح الجمجمة من خلال الشعر الخفيف لكبار السن.

لم أرغب في أن أخطو داخلها، حيث شعرت أنه إذا فعلت ذلك فسوف أعلق بين تلك الشجيرات القاتمة، لكن اليد الصغيرة كانت تمسك بي بإحكام وتحاول بكل ما في وسعها أن تجعلني أتحرك. وبعد ذلك عندما نظرت إلى الأسفل لاحظت شيئًا آخر، حيث توجد في الوسط دائرة غريبة تبدو مثل دائرة خيالية. والتي أستطيع بالكاد أن أراها فهي ليست محددة بأي شيء سوى خط

عشبي داكن أو حجارة صغيرة مخبأة تحت السطح. لكني عندما حدقت فيها بدت وكأنها ليست موجودة.

تفرقت الغيوم الرمادية فوقي للحظة مرت خلالها الشمس بأشعتها الرقيقة، وفي تلك اللحظة ظهرت الدائرة بوضوح خلال تلك الإشراقة العابرة، كانت اليد صغيرة تضغط على يدي في يأس الآن.. بدا الأمر كما لو أنها شخص ما معرض لخطر السقوط من على حافة منحدر، ويحاول التشبث بي من أجل حياته الغالية، ولكنها في نفس الوقت كانت تحاول أن تسحبني معها كما لو أنها تريد التأكد من أنها لو سقطت فأنا سأسقط أيضًا.

كان الشيء ذاته الذي حدث على حافة المنحدر في جبال فيركور باستثناء أنه كان حقيقيًّا آنذاك، إذ إنه لم يكن هنالك منحدر، أما هنا وكانت تفصلني خطوات قليلة فقط ورغم أنني ما زلت لا أريد النزول لكنني لم أعد أستطيع مقاومة قوة اليد.. حتى قلت بصوت عالٍ بدا غريبًا في ذلك المكان المهجور: «حسنًا، حسنًا سأفعل ما تريد».

سرت حذرًا على الأحجار المتصدعة غير المنتظمة حتى وقفت في الحديقة التي تغمرها المياه، على نفس مستوى تلك الدائرة شبه المرئية ولكن في تلك اللحظة نفذت أشعة الشمس واندفعت الرياح فجأة مما أدى إلى إزاحة الأغصان الثقيلة للشجرة العالية على الجانب البعيد ثم توقفت فجأة تاركة سكونًا مخيفًا مطبقًا.

«ما الذي تفعله هنا؟» كان الصوت مثل طلقة قادمة من الخلف إذ لم يحدث وشعرت بمثل هذه الصدمة والرعب أبدًا في حياتي.

«لم تعد الحديقة مفتوحة للجمهور».

فاستدرت، وكانت صاحبة الصوت تقف أعلى الدرج في المدخل، وتنظر إلى الأسفل وتحدق بي بوجه خالٍ من التعبير، لكني شعرت بنوع من عدم الترحيب في حديثها، كانت سيدة عجوز رغم أنني لم أستطع أن أخمن كما يمكن للمرء في أغلب الأحيان كم كان عمرها بالضبط، لكن وجهها كان مليئًا بالتجاعيد التي ما زالت تبدو جميلة، وليس كمن بلغت الستين من عمرها بعد، شعرها مهلهلًا جدًّا وممشطًا للخلف، فيما بدا أنها ترتدي طبقات من الملابس القديمة والتنانير العشوائية والسترات الصوفية ومن فوقهم معطف قديم ملون بلون العظام، مثل السيدة التي تفتش في أكياس القمامة على الرصيف.

تلعثمت معتذرًا لها، وقلت إنني لم أدرك احتمالية وجود أي شخص هنا، واعتقدت أن المكان مهجورًا، وكنت أتلعثم في الحديث لأنها كانت تحدق بي لدرجة جعلتني أشعر بالارتباك نوعًا ما خاصة إنني كنت أقف على مستوى أدنى منها، وكأنني تقريبًا عند قدميها.

قالت السيدة: «ألا تريد أن تأتي إلى المنزل؟»

فأمعنت النظر بها.

ثم تابعت حديثها: «لا يوجد شيء هنا الآن. اختفت الحديقة. ولكن إذا كنت ترغب في رؤيتها كما كانت فسيسعدني أن أريك الصور».

«كما كانت؟»

لكنها كانت تبتعد، بينما تبدو جسمًا صغيرًا غير متناسق في رزمة الملابس التي ترتديها، إضافة إلى خصلات شعرها الرمادي التي

تهرب من مؤخرة رقبتها مثل مجموعات السحب الصغيرة.

«تعال إلى المنزل».

تلاشى صوتها حيث اختفت عائدة إلى العشب المتشابك وكتل الحشائش التي كانت تتشكل منها الحديقة على الجانب الآخر.

لم أتحرك للحظة، حيث لم أستطع التحرك. نظرت إلى قدمي في الأسفل إلى المكان الذي رأيت فيه الدائرة الغريبة في الأرض لكنها لم تعد موجودة الآن. كانت نوعًا من الخدع البصرية التي حدثت بفعل الضوء. وعلى أي حال فلم تكن لدي أي فكرة عما تعكسه ربما قاعدة مبنى قديم أو منزل صيفي أو شرفة! لكنني تقدمت إلى الأمام وكشطت الأرض بقدمي لكن لم يكن هناك شيء. وحاولت أن أتذكر القصص التي تعلمناها كأطفال عن دوائر الجنيات الخيالية، ومن ثم التفت بعيدًا في مكان ما وراء مدخل الممر حيث كانت تنتظرني قائلة: «تعال إلى المنزل».

كان جزء مني يثيره الفضول، أريد أن أعرف من هي؟ وماذا سأجد في منزل كنت أعتقد أنه مهجور وشبه خال؟ لكنني كنت خائفًا أيضًا. اعتقدت أنني ربما يجب أن أعود أدراجي عبر الطريق المكسو بالأعشاب حتى أصل إلى البوابة، وأقود سيارتي في سلام متجاهلًا تلك السيدة العجوز. فارًّا من هنا.

كان الخيار خياري، حيث مشيت في طريقي عبر الشجيرات تحت سماء مليئة بالسحب، فقد كان المناخ خاليًا من الرياح وهادئًا للغاية حتى بدا الصمت محسوسًا، مثل هدوء ما قبل العاصفة.

وما إن وصلت إلى المسار الذي قادني إلى الخروج من الحدائق بين الشجيرات والأشجار الضخمة نحو البوابة. أدركت أنني

كنت وحدي تمامًا! إذ اختفت المرأة العجوز، ولم تعد اليد الصغيرة تقبض على يدي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس عشر

كان المفتاح في جيب بنطالي، وكان عليّ فقط أن أفتح أبواب السيارة، ثم ألقي بالأدوات، وأبتعد عن ذلك المكان، لكني اختلست نظرة سريعة على المنزل وأنا أسير، كان الباب مفتوحًا على مصراعيه رغم أنني كنت متأكدًا من أنه كان مغلقًا من قبل، ترددت. رغبت في الالتفاف والتوجه إلى السيارة لكني ذهلت عند رؤية الباب، من المؤكد أن تلك المرأة العجوز هي من قامت بفتحه؛ لأنها كانت تتوقع مني الدخول وتنتظرني الآن في مكان ما بالداخل.

نادتني قائلة: «هل أنت هناك؟»

فلم يكن لدي خيار آخر بعد كل شيء، أسقطت المقصات على الأرض وتوجهت ببطء نحو المنزل ونظرت لأعلى لأرى النوافذ ذات الإطارات البالية، والطلاء الذي صار باهتًا وتقشر تقريبًا، وفي تلك الهيئة القذرة لزجاج النوافذ المكسورة هنا وهناك والغرفتين المنعزلتين فلا يمكن لأحد أن يعيش هنا بالتأكيد، فقد كان المكان كما رأيته في البداية محطمًا ومهجورًا.

صعدت الدرج، وترددت عند الباب المفتوح إذ لم أستطع رؤية أي شيء داخل المنزل، لا ضوءًا ولا حركة.

«مرحبًا؟» تردد صدى صوتي في الممر المظلم أمامنا.

لم يكن هناك رد. لم يكن هنالك أحد هنا. وكأن الرياح دفعت الباب لينفتح، لكن المرأة العجوز كانت في الحديقة، لقد رأيتها وتحدثت معي! ثم سمعت ضجة، ربما صوتًا. فتقدمت خطوة إلى الداخل.

مرت عدة لحظات قبل أن تعتاد عيني على الظلام، لكن بعد ذلك رأيت أنني أقف في قاعة، وهناك ممرّ على يميني، حيث رأيت بصيصًا من الضوء في نهايته البعيدة. ثم جاء الصوت مرة أخرى.

كانت تنبعث من المنزل رائحة العفن، من المستحيل أن يظل منزلًا حتى الآن، من الطبيعي ألا يكون عامرًا بالسكان منذ عقود. مددت يدي للمس الحائط أتحسس الطريق لنفسي على طول الممر على الرغم من أنني كنت متأكدًا من حماقتي وضرورة العودة من هذا المكان

لكني استعدت وعيي للتو وقدرًا من الهدوء منذ الأشياء الفظيعة التي حدثت معي في أكسفورد وفي جبال فيركور وحديقة الدير، فقد كنت على يقين من أن هذه الأشياء مرتبطة بطريقة ما بهذا المنزل وبزيارتي الأولى هنا، في المرة الأولى التي شعرت فيها بيد صغيرة تمسك بي. هل كنت مجنونًا؟ لم يكن علي العودة إلى هنا كما أنه يجب ألا أتمادى في المضي قدمًا بالتأكيد. لكني كنت عاجزًا عن التوقف. لم أستطع العودة.

كان علي أن أعرف. ومع إبقاء يدي على الحائط الذي كان باردًا ومتشققًا هنا وهناك قطعت طريقي بحذر شديد إلى نهاية الممر في اتجاه شيء ما، و بعد بضعة ياردات اعتقدت أني رأيت ضوء الشموع.

«تفضل بالدخول».

استغرق الأمر مني بضع ثوان كي أدلف داخل واحدة من أغرب الغرف التي دخلتها على الإطلاق. ولم يكن الضوء المتهدج يأتي من الشموع بعد كل شيء، ولكن من زوج من مصابيح البارافين

القديمة التي تنبعث منها رائحة قوية. كما كان هناك القليل من ضوء النهار في الغرفة أيضًا، حيث يتخللها من خلال النوافذ الفرنسية في نهايتها، لكن الزجاج كان متسخًا حيث الحشرات الزاحفة والنباتات الخضراء المتدلية في الخارج والتي تخفي معظمه، وكان من المستحيل معرفة ما إذا كانت السماء رعدية ومظلمة أو ما إذا كانت ببساطة مغطاة بفعل الغبار.

كانت غرفة كبيرة لكن كل أرجائها مظلمة مليئة بالأثاث المكسو بالملاءات. بخلاف ذلك كان الأمر كما لو أنني دخلت الغرفة التي التقى فيها الصبي بيب بالآنسة هافيشام.

وفي إحدى الزوايا كانت هناك أريكة بدت وكأنها معدة كفراش للنوم مع كومة من الوسائد ولحاف قديم ملقى فوقه. وهناك مقعد قديم أمام النوافذ الفرنسية وخزانة بها ما كان يجب أن يكون في يوم من الأيام مجموعة رائعة من الشمعدانات وصفوف من الأواني الصينية الجميلة إلى حد ما لكن الفضية منها كانت متسخة ومليئة بالبقع، وفي المجمل كانت الأواني وسطح الخزانة يغطيهما طبقات من الغبار.

جلست على مائدة مستديرة كبيرة في وسط الغرفة، حيث كان أحد المصابيح قائمًا ومعطفها القديم معلق على ظهر كرسيها لكنها كانت لا تزال في حالة فوضوية داخل الملابس القديمة الرثة. بدت فروة رأسها صفراء بفعل ذلك الضوء، مشرقًا من خلال كومة الشعر الصغيرة الهشة فوق رأسها.

قالت: «يجب أن أعتذر لك، هناك عدد قليل جدًّا من الزوار الآن. فلا يزال الناس يتذكرون الحديقة، كما تعلم ويأتون إلى هنا

أحيانًا لكن ليس الكثير منهم. فقد كان كل هذا منذ وقت طويل. انظر هناك».

فتتبعت نظراتها نحو النوافذ القذرة إلى حيث يمكنني رؤية شرفة أرضية عليها بعض الثياب التي تتدلى في شكل ستائر غير مستوية إضافة إلى كرسي آخر من الخوص.

«يمكنك رؤية الحديقة بشكل أفضل من هناك. ألن تجلس؟»

ترددت في ذلك، ثم انحنت هي وجرفت كومة من كل أنواع القمامة بما في ذلك الصحف القديمة وبعض الورق المقوى وقطع القماش من على كرسي بجانبها. وقالت: «سأريك الصور أولًا». «ثم يمكننا التجول في الحديقة».

لم يكن لدي أي فكرة عن احتمالية أن يعيش أي شخص هنا والآن بما أنني وجدت تلك المرأة، فلم أستطع أن أتخيل كيف تعيش بالفعل وكيف تأكل وما إذا كانت قد غادرت المكان من قبل، من الواضح أنها كانت شبه مجنونة، امرأة عجوز تعيش في عالم من الماضي. تساءلت عما إذا كانت تنتمي إلى هنا أو كانت مدبرة المنزل أو أنها اقتحمته فحسب وأخذته بوضع اليد لتعيش بين الركام والعفن.

نظرت إليّ. كانت عيناها دامعتين شاحبتين، مثل عيون معظم كبار السن لكن كان هناك شيء ما حول تلك النظرة التي بداخلهما يثير أعصابي. كانت بشرتها ناعمة ورقيقة، أنفها مثل خطاف من العظم. وقد كان من المستحيل تخمين عمرها. ومع ذلك كان هناك جمال غريب بها، جمال فسد وأصبح جافًا، لكنه جذب نظرتي إلى كل ذلك. كانت تشبه تلك الزهور المجففة والباهتة التي اعتاد الناس وضعها بين الصفحات أو مع وعاء من

الزهور المجففة القديمة التي تنضح برائحة حلوة لطيفة عندما يزعجها أحدهم، ومع ذلك، عندما تحدثت مرة أخرى كان صوتها واضحًا وحادًّا مع نطق رائع لمخارج الحروف، دون أن أي شيء آخر يجب ذكره.

«أعتقد أنك زرت الحديقة من قبل، سيد... ».

«لا، لقد ضللت الطريق المؤدي إلى المنزل ذات مساء قبل بضعة أشهر. فأنا لم أسمع أبدًا عن الحديقة. واسمي سنو».

كانت تنظر إليّ بنصف ابتسامة تهكمية وغريبة.

«هلا جلست من فضلك، قلت لك إنني سأريك الألبومات. يأتي الناس أحيانًا من أجل ذلك كما تعلم، وكذلك أولئك الذين يتوقعون أن الحديقة لا تزال مفتوحة وأن كل شيء كما كان».

نظرت إلي.. «لكن لا شيء كما كان، أليس كذلك يا سيد سنو؟»

«لا أعتقد أنني أعرف اسمك».

«افترضت أنك تعرف».

واصلت النظر إلي لثانية أو ثانيتين قبل أن تسحب ألبومًا جلديًا كبيرًا تجاهها من عدة ألبومات على المنضدة، بينما كان الضوء في الغرفة مخيفًا بفعل المزيج الغريب من مصباح الزيت المضيء ونور المساء الرمادي الذي يتسلل من الخارج من خلال النباتات الزاحفة والمتدلية.

«لا يمكنك النظر إلى هؤلاء وأنت واقف، ولكن ربما يمكنني إعداد شيء من أجلك، لأن الوقت متأخر لتناول الشاي، لكن يمكنني أن أقدم لك بعض الخمر».

«شكرًا لك. لا. يجب أن تغادر حقًّا، أخشى أنني يجب أن أمضي في طريقي للبقاء مع بعض الأصدقاء، فلا يزال لدي بعض الأميال التي سأقطعها بالسيارة. كان يجب أن أغادر...».

سمعت نفسي أثرثر، بينما جلست هي بلا حراك، يدها على الألبوم وكأنها تنتظر في صبر أن يخمد صوتي كي تتابع ما تفعله. ولثانية كانت الغرفة صامتة تمامًا، وكأننا تجمدنا في داخلها، لم يتحدث أو يتحرك أي منا وكأن شيئًا غريبًا قد حدث للوقت.

أعرف أنني لا أستطيع المغادرة، إذ إن هناك شيئًا ما يبقيني هنا، وكان ذلك عكس إرادتي جزئيًا وليس بشكل كامل، وكنت متأكدًا من أنه إذا حاولت الذهاب فسوف يتم احتجازي هنا، إما بصوت المرأة العجوز أو باليد الصغيرة والتي لم تكن موجودة في الوقت الحالي على الأقل. لكن إذا حاولت الهروب فستكون هنا ممسكة بي بإحكام كي تمنعني.

قمت بسحب كرسي، وجلست بعيدًا عنها قليلًا على طاولة من خشب البلوط الداكن، والتي كان سطحها ملطخًا بطبقات من الأوساخ والغبار، فنظرت إليّ ورأيت مرة أخرى الجمال الغريب يتألق من خلال العمر البادي عليها واصفرار أسنانها والجلد الجاف والخصلات الواهنة من شعرها القديم.

«كان هذا شكل المنزل عندما وجدته لأول مرة. والحديقة أيضًا، ليست صور جيدة جدًّا. فقد اتخذت بكاميرات صغيرة».

هزت رأسها وقلبت الصفحة. وقالت وهي تنظر إلى الأسفل: «صحراء مقفرة.. هذا ما قاله الأطفال عندما جئنا إلى هنا لأول مرة. أتذكر بشكل جيد، مارغريت وهي تهرول حول المنزل وتنظر

إليه الأشجار الضخمة، والأعشاب التي كانت أطول منها، ورودودیندرون... ».

رفعت يدها فوق رأسها، وهي تقول: ومن ثم توقفت مارغريت هنا، انظر، هنا بالضبط حيث جاء مايكل، وهو يلحق بها ووقفوا معًا وهي تصيح: «إنها صحراؤنا الخاصة!».

وضعت يدها على الصورة، وظلت صامتة للحظة. وقد كان بإمكاني رؤية الصور بالية بفعل الوقت وصغيرة نوعًا ما. لكنها كانت كلها مألوفة لأن المكان كان كما يبدو عليه الآن، حيث أورقت الأشجار مرة أخرى وكان المنزل مهلهلًا كما كان طوال تلك السنوات الماضية. كل تلك السنوات؟ كم عددها؟ وكم كان عمر تلك السيدة؟

ثم قلت لها فجأة: «أنت! أنت دينيسا بارسونز. وتلك كانت حديقتك!»

فقالت باستخفاف: «بالطبع، من كنت تعتقد أنني أكون؟»

دار رأسي فجأة، وبدت الطاولة تتحرك أمامي. فمددت يدي لأمسك بها.

كانت تبتسم بشكل غامض، وهي تنظر في الألبوم وبدأت تقلب الصفحات واحدة تلو الأخرى مع إطلاق ملاحظات عرضية. «البناؤون... انظر... يحفرون الأرض... الأشجار تتساقط... الضوء... الكثير من الضوء يتسلل فجأة».

كانت حركة الصفحات تربكني، حتى إنني شعرت بالاشمئزاز، فقد كانت رائحة البارافين مقززة والغرفة نتنة، وكانت هناك رائحة أخرى افترضت أنها بفعل تراكم الأوساخ والعفن.

«أحاول العثور عليه».

تقلب وتقلب وهي تقول: «مارجريت لم تغفر لي قط. ولا حتى مايكل لكن مايكل كان أكثر عقلانية على ما أعتقد. وبعد ذلك بالطبع فقد ذهب بعيدًا. لكن مارجريت كانت تمتلئ بالكراهية وبالبغض المرير، كما ترى».

وضعت يدها على الطاولة، وأمعنت النظر كما لو كانت تقرأ شيئًا هناك: «لقد أرسلتهم بعيدًا إلى مدرسة داخلية، عندما جئنا إلى هنا لأول مرة وبعد وفاة آرثر لم يخطر ببالي مطلقًا أنني سأرغب بإبعادهم عن طريقي مجددًا، لقد ترك آرثر لي المال، وهو ما يكفي لشراء مكان آخر لكني لم أحب الضواحي أبدًا. ولكن عندما جئنا إلى هنا حدث شيء ما. كان عليّ أن أفعل ذلك كما ترى، كان عليّ أن أنفقها كلها، وأن أصنع شيئًا رائعًا على طريقتي الخاصة، وكانوا في طريقهم إلى هنا».

قلبت صفحة تلو أخرى.

«ها هو كما ترى. هنا كل شيء. الماضي. انظر... جاءت الملكة. ها هي. كانت هناك أخبار عن ذلك في كل الصحف. انظر».

لكني لم أتمكن من النظر؛ لأنها كانت تقلب الصفحات بسرعة كبيرة وعندما تصل إلى نهاية الألبوم، كانت تحضر آخر.

قلت لها: «يجب أن أذهب، يجب أن أكون في مكان آخر».

فتجاهلتني.. حتى وقفت ودفعت مقعدي للخلف. فيما بدت الغرفة أنها تنكمش وتتقلص إلى مساحة صغيرة حول الطاولة مضاءة بواسطة المصباح الزيتي. وما إن تقدمت للأمام بالكاد حتى شعرت بالغثيان والدوار.

فأطلقت ضحكة غريبة وقالت «هنا، هذه، انظر هنا».

وقلبت الألبوم حتى أتمكن من رؤيته. كانت هناك أربع صور على اليسار واثنتان على الجانب الأيمن، وكلها مقطوعة من الصحف وباهتة إلى حد ما.

بدت أنها صور لأجزاء مختلفة من حديقة البيت الأبيض كما كانت كان سياج شجر الصنوبر واضحًا في إحداها، وسلسلة من مداخل الورد المقوسة في أخرى. وكانت هناك مجموعات من الزوار تتجول عبر العشب. ويبدو أن الصورة التي أشارت إليها كانت عبارة عن شرفة واسعة وضعت بها المقاعد أمام درابزين حجري. إضافة إلى العديد من الجرات الكبيرة التي تتدلى منها الزهور. وكان باستطاعتي رؤية درجات تؤدي إلى أسفل ويفترض أنها تقود إلى مستوى أدنى وجزء آخر من الحديقة.

لم تكن تشير إلى الكتاب، بل كانت جالسة في كرسيها تنظر إلى مسافة بعيدة غير مدركة تقريبًا للمكان الذي تتواجد فيه أو بوجودي. كانت ثابتة تمامًا لدرجة أنني تساءلت للحظة إذا ما كانت لا تزال تتنفس.

وبعد ذلك، ولأنه كان الأمر الذي يتوجب علي فعله الآن حيث لم أستطع إبعاد عيني بعيدًا، نظرت إلى أسفل في صفحة الصور، ثم انحنيت برأسي لرؤيتها عن كثب، نظرت إلى الصورة الموجودة على اليمين والتي أشارت عليها، كان هناك تعليق أنا لا أتذكر ما قرأته ولكنه لم يكن ذا أهمية» ربما كان «نهار مشمس» أو «الزوار يستمتعون بالحديقة». ورأيت أن ذلك القطع كان من مجلة ويبدو أنه جزء من ورقة أطول مع عدة

أعمدة مزدوجة وصورة أخرى أصغر. لكنها لم تكن الكتابة أو العنوان هما ما يجب أن أحدق بهما.

بل أظهرت صورة الشرفة بالأبيض والأسود زوجين بجانب أحد المقاعد، وكان بعض الأطفال جالسين على المقعد، ثلاثة أولاد بقمصان بيضاء أنيقة مفتوحة العنق وبناطيل رمادية وجوارب بيضاء وصنادل. وكان أحدهم يرتدي كنزة صوفية بدون أكمام محاكة على تصميم جزيرة فير. نظرت إليها عن كثب وعندما فعلت ذلك نما لدي شعور غريب بالألفة كما لو كنت أعرف تلك السترة. ثم أدركت أن السترة لم تكن مألوفة فقط، بل إنني أعرف الصبي. كنت أعرفه لأنه كان أنا! ربما كان عمري خمس سنوات حينها، فقد تذكرت السترة لأنها كانت ملكي، وكان بإمكاني رؤية الألوان ما بين البني الفاتح والأزرق الشاحب والبني، كنت الصبي الذي كان يرتدي السترة، وكان الجالس بجانبي هو أخي هوجو. لكن لم تكن لدي أي فكرة عما يكون الصبي الآخر الذي جلس في نهاية اصطفافنا والذي كان أصغر منا، لم أتذكره.

وكانت تقول لي الآن: «تعال للخارج، دعني أريك»

نعم. كنت بحاجة إلى أن أكون بالخارج، أن أكون في أي مكان في الهواء الطلق وبعيدًا عن المنزل، وتلك الغرفة برائحتها وضوئها الباهت. فقمت بتتبعها، وأنا أفكر أنه مهما حدث لدي مفتاح السيارة في جيبي إذ يمكنني الذهاب في غضون لحظات قليلة. لكنها لم تغادر الغرفة من خلال الباب المفتوح على الممر المظلم، وإنما ذهبت نحو النوافذ الفرنسية وأدارت القفل. رغم أنه من المؤكد أن هذه الأبواب الزجاجية لم تفتح منذ سنوات حيث كان القفل الذي يحول دون فتحها مبرومًا سميكًا مثل الحبل ملتفًا حول المفصلات.

لكنها فُتحت بسهولة، كما لو كانت مجرد حلم، وأزاحت الستار الثقيل من النباتات الخضراء جانبًا، حيث كان هنالك الكثير من خيوط العنكبوت المتدلية، وخرجت بعدها إلى الشرفة الواسعة. كنا في وقت الغسق لكن السماء صافية خالية من السحب الكثيفة التي كانت موجودة مسبقًا.

أتذكر أنها أدارت رأسها ونظرت إلي وأنا أقف خلفها. أتذكر تعبير وجهها، أتذكر عينيها. أتذكر الطريقة التي كانت ترتدي بها تلك الملابس الرثة تحت المعطف القديم عندما كنا داخل المنزل.

أتذكر هذه الأشياء وقد التصقت بذاكرتي لأنها كانت حقيقية، لقد رأيت تلك الأشياء، كنت هناك، وكان بإمكاني أن أشعر بهواء المساء على وجهي. لم يكن هذا حلمًا.

لكن كل ما حدث بعد ذلك كان له وقع مختلف تمامًا. كان الأمر حقيقيًّا، وكنت هناك رغم أنني أشعر عكس ذلك.

أنا أشعر باليأس والحيرة، ولا أعرف كيف أصف ما شعرت به على الرغم من أن كلمة مريض تفي بالغرض، فقد كانت ساقاي غير مستقرتين، بينما تتسارع نبضات قلبي، وعانيت لثوانٍ من الدوخة تبعها هزة بسيطة مفاجئة مثل صدمة كهربائية كما لو أنني استعدت وعيي بطريقة ما.

بمجرد أن غادرنا ظلام المنزل، ونزلنا على الدرجات الحجرية بدا المساء وكأنه يتراجع إذ كانت الشمس لا تزال ساطعة رغم كل شيء وكان الهواء أقل برودة. مما جعلني أعتقد أن الغيوم الكثيفة هي ما جعلتني أفترض أن الوقت يبدو متأخرًا وأكثر إظلامًا، لكنها بدأت تتلاشى الآن مما يضفي نهاية ناعمة ومشرقة قليلًا على هذا اليوم.

سبقتني دينيسا بارسونز ببضع خطوات، وبينما كنا نسير أدركت أننا خرجنا إلى جانب مختلف من الحديقة، وهو جانب لم أره من قبل ولم أفكر فيه، جانب يبدو أنه يتم الاعتناء به حيث لا يزال يبدو كحديقة وليست غابة. فقد تم جز العشب، وكانت الممرات ممتلئة بالحصى وخالية من الحشائش وبقعة واسعة ذات جدار حجري مرتفع لا يزال مزهرًا بالورود النامية بين الشجيرات الخضراء. نظرت حولي محاولًا استيعاب الاتجاهات، وكنت لا أزال أشعر بأني غير مستقر. رأيت سنجابًا يقفز من فرع إلى فرع على شجرة أرز ضخمة على يميني مما جعلني أطالعه، لكن يبدو أن المرأة العجوز لم تلاحظ ذلك، فقد سارت ببساطة وكانت مشيتها ثابتة ومتأنية، ولم تكن مترددة أو حذرة كما ظننت أنها ستكون.

قلت لها: «لم يكن لدي أي فكرة أنك حافظت على جزء من الحديقة ليبقى هكذا، ظننت أن الطبيعة قد استعادت كل شيء، يبدو أنك احتجتِ الكثير من المساعدة في هذا».

لم تجِبني، وواصلت السير فحسب لتسبقني ببضع خطوات، دون أن تدير رأسها مرة أخرى أو تعطي أي إشارة على أنها استمعت لكلماتي. ومن ثم نزلنا على طريق مفروش بالحصى ومعتم بشكل كبير، في اتجاه سياج من شجر الصنوبر الذي ظننت أنه يبدو مألوفًا بالنسبة لي، لكن كل هذه السياج الخضراء الداكنة العالية تبدو متشابهة بالنسبة لي، ولم يكن هناك ما يميزها. كان العشب قصيرًا ولكن لم يكن هناك المزيد من أحواض الزهور وبينما واصلنا السير على نفس المنوال بطريقة رتيبة إلى حد ما، اعتقدت أنه من المحتمل أن الاعتناء بهذا المكان يتم بواسطة متعهد بناء يأتي مرة واحدة في الأسبوع لقص

وتقليم تلك السياج. كما يقوم بفرش الحصى عدة مرات في السنة للتخلص من الأعشاب الضارة. ماذا سيفعل أكثر من ذلك..

كان الظل يمتد عبر العشب مثل الأصابع التي تسعى خلف آخر ضوء للشمس. ومن ثم استدارت العجوز عندما وصلنا إلى المدخل المقوس الذي يقودك إلى سياج أخرى، وكنا في أعلى درجات السلم الحجري، وننظر إلى الأسفل إلى حيث رأيت الحديقة الغائرة التي نمت بشكل كبير وممراتها الحجرية محطمة ومليئة بالأعشاب الضارة. وتحتي كانت هنالك تلك الدائرة الغريبة مثل شيء مظلل في العشب الذي كان هناك ثم فجأة لم يكن، ذلك الوهم البصري الذي ربما كان بفعل سحابة تتحرك أمام الشمس.

لكن ما رأيته بعد ذلك لم يكن أرضًا مقفرة، وإنما كان من المؤكد أنها نفس الحديقة المغمورة بالمياه والتي جعلتني أتذكر مكان إيطالي ربما قمت بزيارته ذات مرة، لكنه كان منظمًا إلى حد كبير، مع سياج منخفضة تحدد المربعات والمستطيلات التي تحتوي على جرة من الأعشاب، منظم ومرتب للغاية، كما كانت هناك ممرات مليئة بكومات الحصى، وعلى الجانب البعيد مجموعة من الدرجات الأخرى التي تؤدي إلى نوع من الهياكل الحجرية الصغيرة.

ثم نظرت إلى الأسفل، ولم يكن هناك ذلك المخطط الغامض عند قدمي والذي يبدو كحلقة خيالية رائعة([6])، وإنما كانت بركة مياه، بركة مياه ساكنة ومظلمة تسير بشكل سطحي ناحية العشب ولها حافة حجرية، ورأيت كيف أنها كانت حديقة متناسقة للغاية ذات نسخة متطابقة بالضبط على الجانب

الآخر. وبينهما دائرة حجرية كانت عليها ساعة شمسية دقيقة مطلية باللونين الذهبي والأزرق. لكني كنت أمعن النظر في البركة الآن مع عدد قليل من طبقات الزنبق السميكة التي لا تتحرك وأسماكها البطيئة الصامتة التي تتحرك تحت سطح الماء. التفتُّ إلى دينيسا بارسونز كي تعطيني تفسيرًا، لكن ما إن فعلت حتى حدث شيئان بسرعة كبيرة. تسللت اليد الصغيرة إلى يدي، وبدأت تجذبني للأمام بقوة هائلة ومرعبة وعندما فعلت ذلك كان هناك صوت ينادي باسمي.

لقد كان صوتًا حقيقيًّا، وبدا مألوفًا بالنسبة إلي، ومع ذلك بدا مختلفًا وغريبًا بطريقة ما. كان يهمس باسمي مرارًا وتكرارًا، وأصبح الهمس يعلو ليصبح صوتًا واضحًا وأكثر إلحاحًا. في كل مرة سابقة بغض النظر عمن يكون صاحب اليد الصغيرة، كان هذا الشخص صامتًا تمامًا. لم أسمع قط ذلك الهمس الخافت في الهواء، لكنني الآن سمعت شيئًا ما بوضوح تام.

يقول: «آدم، آدم. آدم. آدم»، ثم يصمت، ويقول اسمي مرة أخرى حتى صار صياحه يعلو قليلًا ليصبح أكثر إلحاحًا. «آدم. آدم».. وفي الوقت نفسه كانت اليد الصغيرة تسحبني بشدة حتى فقدت توازني وشبه سقطت على الدرج، وذهبت معها وأنا أتعثر، حيث سحبتني نحو البركة، فأغمضت عينيّ خائفًا مما كان هناك، ما كنت أعلم أنه يجب أن أراه كما رأيته في بركة المياه في الدير.

«هنا. هنا. هنا».

رفعت ذراعي اليمنى في الهواء لأتخلص من قبضة اليد الصغيرة وعندما فعلت ذلك نظرت نحو الممر في نوع من نداء يائس

للسيدة العجوز كي تساعدني. لكنها لم تكن هناك، فقد كان المدخل المؤدي للسياج خاليًا، لا شيء سوى الظلام، كان مثل نافذة فارغة. ولا أعرف ما إذا كنت قد صرخت أم لا؟ فأنا لا أتذكر ما إذا كانت اليد لا تزال عالقة بيدي. لا أعرف شيئًا بخلاف أن الصوت كان لا يزال في أذني، لكنه يتذبذب ويصبح أكثر خفوتًا وغرابة قليلًا، وكأن العالم قد انهار من حولي وشعرت بنفسي أسقط، ليس على الأرض الصلبة، ولكن في مكان بلا قاع، في دوامة مظلمة انفتحت عند قدمي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع عشر

أنا متأكد من أنني فقدت وعيي لبضع دقائق قبل أن أحاول بلوغ السطح كما لو أنني كنت أغوص في المياه العميقة، وكنت أتجه ببطء نحو مصدر الهواء والذي بدا قريبًا ورطبًا وكان هناك القليل جدًّا من الضوء.

كم من الوقت بقيت في المنزل؟ لقد ذهبت إلى هناك في وضح النهار أما الآن فقد حل الظلام تقريبًا. وقد كنت مستلقيًا على الأرض حين مددت يدي لأشعر بوجود الأحجار الباردة وشيء خشن آخر، كان عبارة عن حصى تقريبًا، وتدريجيًّا بدأت أستعيد وعيي وأيقنت أنه يمكنني الجلوس. لكن الأمر استغرق مني عدة دقائق لأتذكر أين كنت. فقد كانت الحديقة مظلمة لكن عندما أمعنت النظر بها استطعت أن أرى قليلًا. إذ بدا لي أنني لم أصب بأذى رغم أنني كنت في حالة ذهول.

هل فقدت الوعي؟ هل تعثرت وسقطت وربما أخرجت نفسي؟ لا، لأنني بالتأكيد كنت سأشعر بالألم في مكان ما، ولم يكن هناك شيء. لقد كنت وحدي وكانت الحديقة هادئة. حتى الشجيرات والأشجار من حولي لم تتحرك أو تصدر حفيفًا، ولا يوجد صوت للطيور. انتظرت حتى استعدت ذاكرتي وبدأت في تكوين صورة واضحة في ذهني. صورة المرأة العجوز في الملابس الكثيفة الغريبة، الغرفة التي تعيش بها في أرجاء منزل شبه مهجور. رائحتهما والنبرة المتذبذبة لصوتها. والحديقة.

هذا الجزء من الحديقة الذي قادتني إليه، والذي لم يكن مهملًا، وانما مرتب ومعتنى به، مع العشب والأشجار والشجيرات وأحواض الزهور وأقواس السياج الوردي العالي التي تؤدي إلى

درجات سلم مرتبة نحو.... هذا السطح اللامع المظلم للبركة والحافة الحجرية التي تدور من حولها، والسمك الذهبي الذي يسبح تحت الماء. وهذا المقعد؟ هل كان هناك مقعد؟ مقعد! مقعد!

تخلت ساقي عني مرة أخرى وشعرت بموجة من الغثيان ومرارة في فمي جعلتني أرغب في التقيؤ على الأرض الباردة، وبعد ذلك سمعت شيئًا ما، كان صوتًا عاديًّا ومألوفًا بشكل مطمئن. إنه صوت السيارة. فمسحت فمي بظهر يدي.. لكني لم أستطع النهوض مرة أخرى ولفترة من الوقت كان كل شيء مظلمًا وصامتًا، وبعد لحظة رأيت وميضًا خافتًا في مكان ما والذي كان يتلاشى بعيدًا، ثم يومض مرة أخرى وبعد لحظات قليلة سمعت شيئًا آخر، صوت شخص يدفع الشجيرات وينادي: «سيد سنو، سيد سنو؟».. حاولت أن أجيب لكنني أحدثت صوتًا غريبًا، وكأن حلقي يختنق به، حتى تسلل الضوء عبر العشب من ورائي.

«السيد سنو؟».. لم أتعرف على الصوت.

«هل أنت هناك؟ سيد سنو؟»

ثم كاد أحدهم أن يتعثر فوقي إضافة إلى ضوء بطارية كبيرة تشع في وجهي، وكان الرجل ينحني نحوي وهو يتمتم بدهشة وقلق. فأغمضت عيني بارتياح شديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن عشر

ظللت مستيقظًا لفترة طويلة في تلك الليلة. حيث احتسيت مشروبًا قويًّا عند وصولي إلى منزل آل ميريمان، ثم قمت بالاستحمام بالماء الساخن بعد ذلك، حرصت السيدة ميريمان على أن أبقى في السرير وأتناول العشاء على صينية لكنني أردت العودة إلى الحياة الطبيعية من خلال تناول الطعام معهم والتحدث وإخبارهم بكل ما أعرف عن الأعمال الكاملة لشكسبير حتى لا أضطر إلى قضاء الوقت بمفردي، وأنا أفكر فيما حدث وفيما لم يحدث. وقد استعدت وعيي سريعًا خلال احتساء نوع جيد من الجعة والمياه الساخنة، ولم أشعر بأي تأثيرات لاحقة لما حدث لي.. ولكن ماذا حدث؟ أتعثرت وسقطت؟ ألقيت بنفسي؟ أغمي عليه؟ لم يكن لدي أي فكرة وفضلت عدم التكهن بالأمر لكنني بالتأكيد لم أُصَب بأي شكل من الأشكال باستثناء وجود كدمة مؤلمة في مرفقي إثر اصطدامي بالأرض بفعل وزني.

تحدثت السيدة ميريمان قليلًا فحسب، لكنني علمت أن عينيها الزرقاوين الحادتين لم تفوتهما شيء، وعلى الرغم من تحفظها الهادئ المعتاد فقد كانت هي من أطلقت ناقوس الخطر، وخمنت أين تم العثور علي عندما فشلت في الوصول إلى منزلهم.. أخبرتني أنه تم اللجوء إلى الشرطة أولًا لكن لم تردهم تقارير عن حوادث طرق.

وقالت: «ثم لجأت إلى الحاسة السادسة التي أملكها، كما تعلم، والتي لم تخذلني أبدًا. فقد كنت أعلم أنك كنت هناك. آمل ألا تعتقد أن هذا غريبًا بأي شكل من الأشكال سيد سنو، فأنا لست

ساحرة. لكن الناس لا يحبون الأمر عندما أقول أشياء من هذا النوع. لذا تعلمت أن أبقى صامتة».

قلت: «أنا ممتن جدًّا لحاستك السادسة، ولا أحسبها شيئًا غريبًا. فالكثير من الناس لديهم جانب توارد خواطر قليلًا... أنا أعتقد في كونها أمورًا طبيعية إلى حد ما. غالبًا ما كانت والدتي تعلم متى ستصل الرسالة من شخص ما حتى لو لم تكن تتوقع ذلك ولم تسمع بالفعل من هذا الشخص لسنوات».

«إن زوجي يشكك في مثل هذه الأمور، لكن أتعلم؟ بعد كل هذا الوقت ورغم أنه تعلم ألا يجادلني في ذلك، فإنه لا يحدث في أغلب الأحيان ولكن عندما يحدث..».

«حسنًا، الحمد لله أنه حدث اليوم وإلا ظللت مستلقيًا هناك طوال الليل. ربما تعثرت في ذلك الطريق الوعر والمتعرج واصطدمت في رأسي»

لم تقل شيئًا تعليقًا على ذلك، وكانت الأمسية ممتعة بسبب فرحة مضيفي الواضحة عندما سمع أنه من المحتمل جدًّا أن يغدو صاحب مجموعة الأعمال الكاملة لشكسبير في غضون الأسابيع القليلة المقبلة، وقد كانت كيفية نقله إليه مشكلة بسيطة على الرغم من إخباري إياه أنها يجب أن تصل قبل عيد الميلاد، وإلا لن يحصل عليها حتى الربيع، فعادة ما يتساقط الثلج في الدير بين أوائل يناير ومارس.

اقترح عليّ أن الطريقة الأفضل والأكثر أمانًا هي أن أسافر لآخذها حيث أنني أعرف المكان، وسأكون شخصًا موثوقًا به بالنسبة له وبطبيعة الحال سيكون كل من الكتاب وأنا في أمان تام. لكن كل شيء بداخلي كان يتراجع عن فكرة العودة إلى دير القديس ماثيو،

ليس بسبب مسؤولية حمل الكتاب ولكن لأنني شعرت أن أي شيء قد يحدث في ذلك المكان كما حدث بالفعل، ولم أكن أثق في أنه يمكنني السفر هناك والعودة دون حدوث شيء ما من شأنه أن يجعلني أعاني من الرعب مرة أخرى.

لأنني أدركت أنه بخلاف الحادث الطفيف اليوم، فأنا لم أتعرض أبدًا لأي ضرر حقيقي. لكن ما مررت به كان أقصى درجات الخوف وشعرت بالرعب بما يكفي لدرجة أنني أرغب أن أتجنبه بأي ثمن. لم أستطع التحدث عن أي من هذا. وقلت ببساطة إنني شعرت أن شركة محترفة معتادة على نقل أشياء ذات قيمة كبيرة ستكون من الأفضل أن تتولى جلب مجموعة الأعمال الكاملة إلى إنجلترا. أعلم واحدة جديدة وموثوقة تمامًا رغم كونها مكلفة ووافق السيد إدجار على السماح لي بعمل الترتيبات مع الدير بمجرد الاتفاق على الصفقة في النهاية ودفع الأموال.

كانت نهاية اليوم رعدية بعض الشيء. وكانت الأبواب مفتوحة على الحديقة، حيث يمكننا رؤية وميض البرق فوق البحر من بعيد. فيما أحضر السيد إدجار زجاجة من البراندي العتيق الرائع للاحتفال بصفقته الرابحة وتحدثنا حتى وقت متأخر. نظرت السيدة أليس لي نظرة خاطفة من حين لآخر واستشعرت كونها قلقة لكنها حتى صعودنا إلى الطابق العلوي بعد منتصف الليل لم تقل شيئًا سوى: «السيد سنو، لقد كنت أبحث لإيجاد بعض الأشياء الأخرى حول البيت الأبيض وحديقته إذا كنت لا تزال مهتمًا. ولقد وضعتهم في مكتبي الصغير من أجلك انظر به غدًا إذا كنت ترغب في ذلك، ربما تكون قد اكتفيت من الأمر بعد زيارتك هناك اليوم. لقد تحدثت إلى صديقة تعيش في مكان ليس بعيدًا، وقالت إن المكان مهجور تمامًا ومغلق منذ عدة سنوات

حتى الآن. فيما يتساءل الجميع لماذا لم يقم أحد بشراء الحديقة أو استعادتها، إذ يبدو الأمر فظيعًا أن ينتهي بها على هذه الشاكلة، على أي حال أتمنى أن ترتاح جيدًا وأنت تعرف مكان المكتب الصغير إذا كنت تريد إلقاء نظرة على ما وجدته».

تمنيت لها ليلة سعيدة وأغلقت بابي وسرت إلى النافذة أقف ناظرًا إلى الظلام، وأستمع إلى الرعد الذي كان يزأر بالخارج في اتجاه المنزل حتى تذكرت ما قالته السيدة أليس، كانت محاولة النوم ميؤوسًا منها فقرأت لبعض الوقت، لكن الكلمات كانت تتساقط من ذهني، ففتحت النافذة وكانت السماء تمطر قليلًا، وكان الهواء كثيفًا يحمل برودة الخريف.

ارتديت روبًا فوق ملابس النوم، وعندما تحركت نحو الباب انطفأ المصباح المجاور للسرير. وقد كان هناك مصباح صغير بجانبه لاحتمالية حدوث ذلك، وعلى ضوئه شققت طريقي بهدوء عبر الدرج الواسع إلى أسفل الممر الذي أدى إلى المكتب الصغير. أنار ضوء المصباح اليدوي الألواح الخشبية والصور على الجدران بجانبي خاصة اللوحات الزيوت للقلاع القديمة والرياضيين. وقد كان لدى السيد إدجار مجموعة جيدة جدًّا من الألوان المائية من القرن الثامن عشر في المنزل، ولكن لم تكن ذات جمال كبير أو بها ما يثير الاهتمام. وسقط شعاع المصباح مرة أو مرتين على عيني رجل أو كلب ومرة على مجموعة من الأسنان الضخمة لحصان بشكل رائع، حيث لمعت العيون والأسنان بفعل الضوء، بينما يزأر الرعد ويضرب البرق في السماء.

لقد وجدت عددًا من المجلات والصحف موضوعة على المائدة المستديرة مفتوحة على مقالات عن البيت الأبيض وحديقته لكن لم تكن هناك أي من الصور التي لمحتها في وقت سابق على

الرغم من أنني بحثت عن كثب عن صورة لنفسي كطفل صغير جالس على المقعد مع هوجو والطفل الآخر الذي يُفترض أنه صديق لنا. لم يكن هناك سبب لوجودها هنا بالطبع فقد كانت كلها صور تم التقاطها بشكل احترافي تظهر روعة الحديقة في أوجها، وعن الزيارة الملكية. وكان هنالك شيئان جعلاني أدقق النظر مستخدمًا ضوء المصباح عن كثب وأنحني لأراهما إذ كانت إحداهما صورة لدينيسا بارسونز. لقد رأيتها من قبل في المجلة التي عرضتها لي السيدة أليس لأول مرة، ولكن هنا كانت أكبر بعشر سنوات.

كانت امرأة ذكية وشعرها مشدود إلى الوراء ترتدي فستانًا نهاريًّا ورديًّا، وأقراطًا. وتلقي رأسها إلى الوراء في إشراق وهي تشير بفخر إلى شيء لتريه للملك. فنظرت في ملامحها عن كثب إذ كان يبدو أن هناك القليل من الشبه القوي بين هذه المرأة الوسيمة التي ترتدي الثوب ذا الصدر الواسع المغطى بالحرير، وبين الكائن رث الثياب ذات الشعر الواهن في معطفها القديم التي استقبلتني بعد ظهر ذلك اليوم. لكن الوجوه تتغير والملامح تتبدل بمرور السنين، ويتجعد الجلد واللحم ويتغير لونه ويتساقط الشعر والأسنان. لكنه لا يمكنني التأكد من ذلك بطريقة أو بأخرى. أما الموضوع الثاني فكان مقالًا طويلًا من التايمزعن دينيسا بارسونز مصممة الحدائق الشهيرة التي احتفت عالميًّا بما فعلته في البيت الأبيض. كرائدة، خبيرة في البستنة، مصممة مهمة، شخصية حالمة، فقد كان هنالك إسراف في الثناء عليها.

لم يكن هناك الكثير عن حياتها السابقة أو عائلتها مجرد إشارة إلى خلفية عادية، حيث الزواج من آرثر بارسونز موظف حكومي

في وزارة المالية وطفلان هما مارغريت ومايكل، ويعود تاريخ المقال إلى حوالي ثلاثين عامًا.

عدت إلى غرفتي، حيث أضاء المصباح مرة أخرى وكانت العاصفة لا تزال مستمرة بالخارج ويمكن أن ترى البرق يومض عبر السماء بشكل عرضي، بينما كنت مستلقيًا على السرير بلا نوم. هل أؤمن بالأشباح؟ سؤال شائع بما فيه الكفاية والذي إذا طُرح علي فأنا عادة ما أقول متحفظًا: «ربما». وإذا سئلت عما إذا كنت قد رأيت واحدًا، كنت أقول بالطبع أنني لم أرَ، فأنا لم أر شبحًا، حتى الشبح الذي تنتمي إليه اليد الصغيرة، لكنني شعرت به بشكل كاف، شعرت به دون أدنى شك، ولعدة مرات.. حتى إنني اعتدت على ذلك. وفي مرة أو مرتين أدركت أنني كنت أنتظر أن أشعر به وهو يمسك بيدي. ولكن بطريقة غريبة كانت اليد الصغيرة مختلفة رغم أنها من المحتمل أن تعود لشبح ما، لكنها كانت مختلفة عن المرأة في البيت الأبيض. هل هي الأخرى شبح؟ أم أنها كانت كما افترضت في البداية مجرد زائرة أو حتى متعدية على مكان فارغ مثله، هل كانت سيدة عجوز تتظاهر بأنها دينيسا بارسونز؟ أو ربما شخص قد عمل عندها ذات مرة.. وكلما فكرت في الأمر زادت احتمالية هذا التفسير. إنه لأمر محزن، الاعتقاد بأن شخصًا ما عاد إلى هناك واقتحم المكان وكان يعيش بين الأوساخ والحطام، مثل الفئران في ملابس قديمة ويقضي الوقت في البحث في سجلات القصاصات القديمة وألبومات المكان في شكله السابق. لكن الناس ربما ينهون حياتهم في مثل هذه الحالة على ما أعتقد، وربما هنالك أكثر مما نعرف.

وما إن شعرت بنفسي أسترخي قليلًا، وأبدأ في الخلود إلى النوم حتى تذكرت الجزء من الحديقة الذي قادتني إليه والذي تم الاعتناء به والحفاظ على هيئته، حيث جز العشب وقص حواف الأشجار كما لو كان يتم التحضير للافتتاح لحفلة الزوار. وكنت في حيرة من أمري حول المكان حيث إنني مشيت عبر العديد من المساحات المختلفة من العشب ومررت بعدة مداخل من الزهور مقطوعة في ساحات من السياج الداكن العالي، ومشيت نزولًا نحو الحاويات الأخرى حتى فقدت الإحساس بالمكان الذي انتهت فيه الحديقة المهجورة لتظهر المنطقة المعتنى بها جيدًا، وكم كان عدد برك المياه الموجودة وأين كان المقعد الذي جلست عليه على ما يبدو مع أخي وصديقنا؟ ومن ثم انجرفت من تذكر كل شيء إلى الحلم به، حتى اختلط الواقع والخيال معًا، وكنت أسير داخل وخارج أجزاء الحديقة المختلفة محاولًا العثور على الفجوة المرجوة في السياج رغبة في المغادرة ولكن واصلت العودة بالطريقة التي جئت بها من قبل بلا نهاية كما يحدث الأمر لشخص في متاهة.

كنت وحدي رغم ذلك. لم تكن هناك امرأة عجوز، وعلى الرغم من أنني في مرحلة ما بدوت وكأنني تحولت إلى نفسي كصبي لكن لم يكن هناك أولاد آخرون معي. وعند نقطة واحدة فقط عندما حاولت أن أجد طريقي للخروج من خلال ممر آخر شعرت بأن اليد الصغيرة تقودني إلى الداخل، على الرغم من أنها كانت تمنحني شعورًا بطريقة مختلفة بما يناسب حالة أحلامي، فقد كانت يدًا تفتقر للقوة ليس لها وزن أو كثافة والتي لم أستطع الإمساك بها كما فعلت مع تلك العظام الصلبة والحقيقية لليد التي وضعت نفسها في راحة يدي في حياتي الحقيقية الواعية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع عشر

غادرت إلى لندن في صباح اليوم التالي، وأنا أشعر بالكسل بعض الشيء، فقد نمت بشكل متقطع لبضع ساعات فقط في عدم ارتياح لكني على الأقل تركت السيد إدجار سعيدًا وقد أعطاني مهمة جديدة كي أنجزها له، لقد أصبح مهتمًّا بالكتب المقدسة للقرون الوسطى المتأخرة، وأراد معرفة ما إذا كان بإمكاني الحصول على نسخة جيدة لكتاب آخر مزخرف بالألوان والذهب والفضة، وقد كانت مهمة صعبة لأنه نادرًا ما يتم طرح مثل هذه الأشياء في السوق، ولكن اقتراح أمر كهذا والتحدث إلى الناس في المزادات في كل من لندن وأمريكا وإرسال رسائل بريد إلكتروني إلى زملائهم وحتى الاتصال بأمين مكتبة القديس ماثيو دي إيتوال سيكون ممتعًا للغاية، وسيشغل عقلي بعيدًا عن مسألة البيت الأبيض. كما أنه لدي أيضًا بعض من يوميات صيد سمك السلمون من القرن التاسع عشر لبيعها لعميل آخر. قدت مسافة عشرين ميلًا بعيدًا، حيث اتخذت طريقًا غير مباشر للعودة لتجنب الذهاب إلى أي مكان بالقرب من الممر المؤدي إلى ذلك البيت على الرغم من علمي أنني لن أنجح في نسيانه. لكني أقنعت نفسي جديًّا بأن التفكير في ذلك الموضوع سيكون بلا جدوى.

عندما اقتربت من لندن كان المرور مزدحمًا وعجزت عن التحرك بالسيارة لمدة خمس عشرة دقيقة، ولم يكن هناك شيء غير عادي في المكان، مجرد امتداد غير مثير للاهتمام من طريق الضواحي. ولم أكن أفكر في المنزل أو الحديقة أو اليد، بل كنت أقوم بإعداد قائمة في ذهني بالأشخاص الذين يمكنني الاتصال بهم بخصوص متطلبات العملاء المختلفة، أتذكر شخصًا ما في

روما وآخر في إسكتلندا قد يكون مهتمًّا بكتب صيد الأسماك، وألقيت نظرة خاطفة على حركة المرور الثابتة في الحارة المقابلة، ثم نظرت في مرآة الرؤية الخلفية لأرى شاحنة تقف خلفي، ولم أكن أعبأ بكوني متأخرًا، فلم يكن لدي موعد لأتعجل الذهاب إليه. كنت أشعر بالملل بكل بساطة.

لا أستطيع أن أقول أن أي شيء قد حدث، فمن الصعب جدًّا شرح ما وقع أو ما لم يقع، بينما انتظرت في سيارتي. وربما سيخبرني أي شخص أن خيالي قد بدأ عمله وأصبح متحمسًا، ومن المحتمل أن يتفاعل مع أقل شيء من حوله بسبب أحداث الأسابيع القليلة الماضية وسيكون على حق. وهذه هي الفكرة! فإن خيالي لم يكن يمارس الألاعيب، لم أستمع ولم أرَ ولم أشعر أو أشم شيئًا.. لا شيء. لم يكن هناك شيء. كان الشعور الأقوى الذي يتملكني هو شعور من العدم كما لو أنه تم التخلي عني بطريقة ما. لن يقترب مني شيء مرة أخرى، لن أكون مضطربًا أو متصلًا بأحد. لا شيء. لن أشعر أبدًا بإحساس اليد الصغيرة في يدي أو أتساءل عما إذا كنت مراقبًا وحتى إذا كان هناك شيء ما يحاول إغرائي إلى أي ما كان بانتظاري.

لا شيء.

لم يكن هناك شيء، لقد عفا عني مثل الحمى التي يمكن أن تذهب فجأة لسبب غير مفهوم مثل الضباب الذي يتلاشى في غضون ثوان.

لا شيء.

كنت وحيدًا تمامًا في سيارتي، حيث بدأت حركة المرور تتقدم ببطء إلى الأمام، وسأكون وحدي عندما أبلغ شقتي. وإذا عدت

إلى البيت الأبيض أو إلى الدير فسأكون وحدي، ولن يكون هناك مرة أخرى طفل يندفع عبر الطريق خلال العاصفة في مسار سيارتي المتحركة.

لا شيء.

شعرت بإحساس غير عادي بالتحرر.

وبعد نصف ساعة عندما دخلت شقتي اكتشفت أن الأمر لم يكن خيالًا أو حتى مجرد تمنٍّ، بل كنت حرًّا ووحيدًا، وأيًّا ما كان ذلك الشيء فقد تركني ولن يعود، كيف يمكن للمرء أن يقوم بتفسير مثل هذه القناعات القوية؟ من أين أتوا وكيف؟ هل سأفتقد اليد الصغيرة؟ حتى إنني تساءلت عن ذلك لثانية لأنه قبل أن تحاول تلك اليد قيادتي إلى أماكن خطرة كانت مريحة بشكل غريب كما لو أنه قد تم اختياري بإشارة عاطفية لطيفة خاصة من المجهول.

لكن الشيء الوحيد الذي لم أستطع أن أنساه هو الصور التي أطلعتني عليها السيدة العجوز عن هوجو وصديقه وعني في حديقة البيت الأبيض. لا أتذكر اليوم أو المكان بالتأكيد لكن ذلك لم يكن مفاجئًا. فمن الممكن أن يكون عمري حينها حوالي خمس سنوات فقط، وعلى الرغم من التفاصيل التي لم تتغير فقد كنت أتذكر سترة جزيرة فير بشكل واضح. ربما يمكنني الاتصال بهوجو عندما يعود من الولايات وأسأله عن ذلك على الرغم من عدم وجود سبب معين لاهتمامي المستمر لكن المصادفة تشكل أحيانًا تناسقًا ممتعًا.

بعد أيام تلقيت مكالمة من تاجر في نيويورك كان لديه بعض العناصر التي كنت أبحث عنها منذ فترة طويلة، ولأن هناك

العديد من الكتب الأخرى التي يمكن أن أسأل عنها للعملاء أثناء وجودي هناك غادرت في رحلة والتي أخذتني بعد ذلك إلى سان فرانسيسكو وشمال كارولينا.

بقيت بعيدًا لمدة ثلاثة أسابيع وسافرت مباشرة مرة أخرى إلى ميونيخ، برلين ثم روما وعدت إلى نيويورك. وبحلول الوقت الذي وصلت فيه إلى المنزل أنجزت العديد من المهام بنجاح.

كنا في أواخر سبتمبر، وقد كنت منخرطًا في العمل في لندن للأسبوع التالي حتى إنني نسيت تمامًا كل ما حدث لي وحتى مسألة الصور لم تخطر ببالي، وعندما وصلت بعدما تناولت الطعام مع عميل محتمل من روسيا وجدت رسالة من هوجو على المجيب الآلي: «مرحبًا يا أخي... لقد مرت فترة طويلة... أتساءل عما إذا كنت ترحب بالقدوم إلى هنا في نهاية الأسبوع المقبل. بينيديكت تعزف في حفلة موسيقية في الكنيسة – سوف تنال إعجابك وهو وقت مناسب للقاء على أي حال. اتصل بنا».

فعلت ذلك واتفقنا أن أقود سيارتي إلى سافولك في مساء الجمعة التالية. دائمًا ما يبدأ هوجو بداية مبكرة ليومه المدرسي لذلك لم أبقِه على الهاتف لفترة طويلة، ولكن عندما كنا على وشك الإنهاء، قلت له: «بالمناسبة... لا أفترض أنك تتذكر هذا ولكن عندما كنا أطفالًا هل ذهبنا مع أنسبائنا لرؤية حديقة في ساسكس؟ تسمى بالبيت الأبيض؟»

لا أعرف ما كنت أتوقع أن يقوله هوجو، ربما لم يكن لديه أي فكرة عن الأمر مثلي تمامًا.

لكنه لم يقل شيئًا، فقد ساد الصمت التام لفترة طويلة حتى سألته عما إذا كان لا يزال على الخط، وعندما أجابني بدا صوته غريبًا.

قال: «نعم.. أنا هنا»

«أنت لا تتذكر أي شيء عنها، أليس كذلك؟»

فصمت مرة أخرى ثم قال: «لماذا تسأل؟»

«أوه، لقد صادفتني للتو صورة لنا هناك، ونحن جالسين على مقعد بالخارج. أنت وأنا وصديق».

«لا. لم يكن هناك صديق»

«أنت تتذكر إذًا؟»

«لم يكن هناك صديق، سأراك يوم الجمعة».

«نعم، ولكن انتظر، أنت... ».

لكن هوجو أنهى الاتصال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العشرون

وصلت في الوقت المناسب لأغير ملابسي سريعًا كي أذهب إلى الكنيسة، حيث ستقوم بينيديكت بالعزف على المزمار في الحفلة الموسيقية، بصفتها عضوًا في الأوركسترا التي تعزف ألحان باخ وعازفة منفردة للقصيدة اللاتينية «فوسيس ميتامور» للكاتب المسرحي أوفيد. لقد كانت حفلة رائعة ومؤثرة إلى حد ما ولم أشعر لا أنا ولا هوجو بالرغبة في الدردشة أثناء عودتنا إلى المنزل. وكانت ليلة باردة مع النجوم الساطعة والرائحة الخافتة للنيران الصاعدة من المدفأة الخشبية عالقة في الهواء، بينما حل المناخ الخريفي. ولكن لم تكن حالة التأمل فيما بعد الموسيقى هي ما منعتنا من التحدث، بل لأني شعرت بتوتر هوجو والذي كان مثل تحذير غير مصرح به لعدم الكلام، وهو شيء لم أكن أعهده منذ أيام مرضه. لكنه كان ملموسًا وكانت رسالته واضحة لا تتحدث معي، لا تسأل أسئلة. تراجع! وكنت في حيرة من أمري لكنني كنت وجدت أنه من الأفضل ألا أحاول كسر دفاعاته من الأسلاك الشائكة التي وضعها قبالتي ووصلنا إلى المنزل في صمت.

تناول الفنانون والأوركسترا الوجبات الخفيفة من الطعام في أماكن أخرى، ولذلك قمنا بتحضير العشاء لأنفسنا، كان عشاءً غير مريح، وأثناء ذلك أخبرت هوجو بفتور عن الأعمال الكاملة لشكسبير وعن رحلاتي الخارجية، وأخبرني بإيجاز عن خططه في جامعة كاترينا وكان يتساءل عما إذا يجب أن يتقدم بطلب للحصول على رئاسة القسم إذا أراد أن يتقدم في السلم الوظيفي بالعمل التربوي فإنه قد حان الوقت لذلك الآن.

لا أعتقد أنني مررت بساعة مرهقة مثل هذه مع أخي من قبل، وعندما قمنا بتنظيف الأطباق، قلت إنني سأذهب إلى الفراش مبكرًا. ولكن عندما استدرت، قال هوجو: «هناك شيء يجب أن تعرفه، تناول كأسًا من الويسكي».

ذهبنا إلى مكتبه، حيث تلك الغرفة المريحة التي تطل على الحديقة، بينما يغمر المسار المؤدي إلى النهر ذلك الضوء القادم من السماء بعدما أزيحت الستائر بشكل محكم.

أشعل هوجو النار، وسكب لنا المشروبات وجلس يحدق في كأسه، بينما يحرك السائل داخله دون أن يتكلم.

كنت أعرف أنني يجب أن أنتظر، ولا أحاول استعجاله ولكن بعد عدة دقائق من الصمت، قلت له: «هل تتذكر كل تلك الأشياء التي أخبرتك بها... نوبات الهلع وما إلى ذلك؟»

فنظر هوجو إلي في تحفظ وأومأ برأسه.

«لقد كنت على حق لقد توقفوا الآن، ذهبوا، توقف كل شيء. أيًّا كان ما هو».

«حسنًا».

ثم قلت «من الأفضل أن تخبرني».

قام بتحريك الويسكي مرة أخرى، ثم احتساه بسرعة وقال: «الصبي الآخر، لقد كنت هناك وأنت أيضًا كنت هناك على المقعد.. هل تقول أنه كان هناك صبي آخر؟ صديق جئت على ذكره. كم كان عمره؟»

حاولت استعادة الصورة، حيث كان بإمكاني رؤية نفسي وأنا طفل، في سترة جزيرة فير.

لكني لم أكن أتذكر هوجو بوضوح في ذلك العمر، فلا يمكن للمرء أن يتذكر أبدًا لكنه كان هوجو.

«بقدر ما أتذكر... كان الصبي أصغر منا مما جعلني أتساءل كيف يمكن أن يكون صديقًا أحضره إحدانا. له شعر قصير ويرتدي بنطالًا رماديًّا قصيرًا... كان مثلنا كما تعلم، مجرد صبي صغير مثلنا».

«كيف كان يبدو وجهه؟»

حاولت التذكر مرة أخرى، ولكنه لم يكن واضحًا. لقد رأيت الصورة مرة واحدة فقط على الرغم من أنني حدقت بها مندهشًا بشدة لبعض اللحظات.

فهززت رأسي تعبيرًا عن العجز حتى قال هوجو: «لم يكن هنالك صبي آخر».

فتحت فمي لأقول إنه بالطبع، كان هناك صبي آخر، لم يكن قد رأى الصورة، وإنما أنا رأيتها، لكن وجه هوجو كان شاحبًا وجادًّا للغاية. ونهض وسكب لنا مشروبًا ثانيًا، وعندما أعطاني إياه لاحظت أن يده كانت ترتعش.

حتى قال في نهاية المطاف: «هذه هي القصة. لقد ذهبنا مرتين إلى ذلك المكان».

«البيت الأبيض؟ تلك الحديقة؟ ماذا تقصد بالتحديد؟»

«أخذتنا والدتنا، فقد كنت في المدرسة الإعدادية عند «ميل جيت» وكنت في الخارج لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، وهي من جلبتك أيضًا، فقد كانت نزهة».

تذكرت القليل عن هوجو عندما كان بالمدرسة في ذلك الوقت حيث على الرغم من أنه كان هناك دائمًا شعور غريب بالفقدان، والوحدة، والفراغ في حياتي اليومية لكني بحلول الوقت صرت أكبر بما يكفي لفهم ما يعنيه أن أذهب إلى المدرسة بنفسي، وكان هوجو في وينشستر.

«غرق صبيٌّ حينها».

شعرت وقع الكلمات في الغرفة الهادئة، ولكن الأمر استغرق مني بعض الوقت لفهمها.

«صبي ...!»

«كان حفيد تلك المرأة».

«دينيسا بارسونز؟»

«نعم حفيدها. لقد كان صغيرًا، في الثانية من عمره؟ شيء مثل هذا، صغير جدًّا. وقد غرق في البركة المليئة بالزنبق. في الحديقة».

نظرت إلى أخي، حيث بدت عيناه وكأنهما متراجعتان في تجاويفهما، وكان وجهه شاحبًا للغاية.

«كيف تعرف هذا؟ هل أخبرك أحد؟ هل والدتنا..؟»

قال هوجو: «لقد كنت هناك».

كان صوته منخفضًا، وبدا كأنه يتحدث إلى نفسه تقريبًا.

«كنت هناك».

«ماذا تقصد بهناك؟ في ذلك المكان؟ هل تقصد في الحديقة؟ هل كنا جميعًا هناك؟»

«لا. ذهبت أنت وأمي إلى جزء آخر منها، كانت هناك أسياج عالية تحيط بالمكان... ومداخل من الورد مررتم منها حتى صرتم في مكان آخر».

أخذ رشفة من الويسكي مكملًا: «لا أتذكر كثيرًا. كنت وحدي في الحديقة حيث كان هناك بركة كبيرة. والسمك في داخلها، سمك ذهبي، ثم كان هناك ذلك الصبي، كان هناك. لا أتذكر كيف لكنه غرق! ا فقد كان بقية ما حدث هو ما قيل لنا وليس ما أتذكره، فأنا لا أتذكر شيئًا».

ثم نظر إليّ مباشرة وبدت عيناه تلمعان فجأة. «لا أتذكر أي شيء».

سمعت سيارة بينيديكت تصل بالخارج وبعد دقيقة، سمعت صوت الباب الأمامي. لم يتحرك هوجو حتى قلت له بعدما تمكنت من الحديث بعد لحظة: «هنالك شيء واحد، شيء واحد غير منطقي، ذلك الطفل. لقد سقط الولد الصغير في البركة وغرق، لكن ما علاقة ذلك بالصبي الآخر الذي معنا في الصورة؟ الصبي الذي يجلس على المقعد. فقد كنا أكبر سنًّا منه، لا أعرف لماذا أعادتنا أمي إلى هناك، هل تعرف أنت؟».

هز كتفيه قائلًا: «لا أتذكر أي شيء».

«أليست الزيارة الثانية؟ لكنك كنت أكبر عمرًا، إذ كنت تبلغ حوالي أحد عشر سنة؟»

«وكم تتذكر عندما كنت في الحادية عشرة من عمرك؟»

كانت هناك صوت خطوات عبر الردهة، وتم تشغيل الراديو بصوت خفيض في المطبخ فنهض أخي.

لكني قلت له: هوجو! لا، لقد بدأت في قول شيء ما و لا يمكنك تركه هكذا، قلت إنه لم يكن هناك ولد في الصور. لكني رأيت ولدًا! رأيته بوضوح كما رأيتك وكما رأيت نفسي».

شعر بالتردد، ثم لوح بيده في غير اهتمام قائلًا: «إنها اشاعة ما، هنالك دائمًا إشاعة ما حول الصبي الذي عاد إلى الحديقة ذلك الصبي».

«وماذا يفعل! ذلك الصبي الذي يعود؟»

«على رسلك.. فأنا لا أؤمن بالأشباح ولا أنت أيضًا»

«أوه! فيما يتعلق بذلك... فأنت تعرف ما حدث لي.. »

ذهبت ووضعت يدي على كتفيه حتى كدت أن أرتعش من غضبي المتزايد منه لمعرفته بشيء ما ومحاولة إخفائه عني، وقلت له: «هوجو، أخبرني».

انتظر حتى تركت يدي تسقط من عليه، ثم قال: «صبي أعتقد أن ذلك الصبي قيل إنه يعود إلى الحديقة والأشباح تفعل ذلك، أليس كذلك؟ لذا تعود الإشاعات إلى المكان الذي حدث فيه أيًّا كان ما حدث، فقد قيل إنه من المفترض أن يعود إلى هناك، هذا كل شيء، مجرد إشاعة».

«لكن الصبي الذي غرق كان صغيرًا يبلغ من العمر عامين. أما من في الصورة كان أكبر... لا يمكن أن يكون هو نفسه. الصبي في الصورة كان حقيقيًّا! وليس شبحًا!».

«كيف تعرف ذلك؟ هل تعرف كيف يبدو الشبح؟ أبيض وشفاف؟»

ثم ضحك ضحكة غريبة وجافة، وهو يقول: «عاد الشبح إلى هناك عامًا تلو الآخر كلما زاد عمره سنة، كان يكبر مثل صبي حقيقي».

«هذا ليس... »

«ماذا؟ غير ممكن؟

انخرطت في صمتي، حيث لم يكن أي من الأشياء التي حدثت من الطبيعي أن تحدث في أي عالم منطقي وواقعي. لكنها حدثت!

«كيف يمكنك أن تعرف كل هذا؟ لقد كذبت علي»

«حقًّا؟»

«عندما أخبرتك أول مرة عن اليد الصغيرة في يدي...».

«أوه، بحق الله، هل تقصد هذا؟ لا أعتقد أن لهذا علاقة، كان كل ما في الأمر هو أنك انعطفت بالطريق إلى هناك بمحض الصدفة.. انسَ الأمر. ولكن إذا كنت تريد أن تعرف، فإن القصة كلها على الإنترنت في أحد المواقع التي تترصد أمورًا مخيفة كتلك! فقد صادف أنني كنت أبحث في إحدى الليالي عن الأولاد الصغار؛ حيث كنا نقرأ رواية هنري جيمس الشهيرة عن الأشباح([7])... أنت تعرف ماهية الأمر، حيث تبدأ في التصفح...».

ضحك ضحكة قصيرة مرة أخرى، واستكمل: «لا أتذكر اسم القصة ولكنك ستجدها هناك. شبح البيت الأبيض... مليئة بالمتعة».

قام باحتساء آخر رشفة من الويسكي، والتقط كلا الكأسين، وتوجه نحو الباب دون أن ينبس ببنت شفه، فجلست للحظة، حيث سمعت صوته، ثم صوت بينديكت وهمهمات منخفضة

من الحديث.. وشعرت بالإنهاك فجأة وبدأ رأسي يؤلمني، فقد كنت أرغب في تجميع الصورة حيال ما قاله لي هوجو وضمه إلى الأشياء التي شاهدتها في الحديقة لبيان الصورة كاملة لكنها كانت غير مترابطة، مثل الكلمات المتقاطعة في ذهني. كنت متعبًا جدًّا وأيقنت أن الصورة ستكتمل، على الرغم من أي شيء، لا أشكك في ذلك.

قد أبحث عن القصة على الإنترنت، لكن شيئًا ما عن الطريقة التي تحدث بها أخي لم يكن وقعه صحيحًا. فقد صدقته في أنه عثر على القصة على أحد المواقع الإلكترونية، ولكن ليس عن طريق الصدفة، وهو يبحث عن روايات هنري جيمس.

في صباح اليوم التالي، كان هوجو قد ذهب إلى المدرسة في الوقت الذي نزلت فيه لتناول الإفطار، وفي فترة ما بعد الظهر كان يحكم مباراة كرة قدم وهو أمر يفعله من أجل المتعة ليس لأنه كان في فريق التدريس الرياضي. وخرجت أنا وبنديكت إلى ريف سوفولك نشاهد الكنائس حتى انتهى بنا المطاف في مكتبة كانت تقدم الشاي على إناء مع بعض الكعكات الممتازة، وسألتها عما إذا كان هوجو قد ذكر نوبات الذعر التي مررت بها، وما إذا كان قد اختبرها مجددًا بنفسه.

قالت بينما تبدو متفاجئة: «لا لا، آدم! أيها المسكين، غالبًا ما يضحك الناس على مثل هذه الأشياء لكنها مروعة في الحقيقة.. لقد انتهت فترة انهيار أخيك وولت. لكني أتساءل الآن إذا ما كان هناك أي شيء يربطك بالأمر؟»

فهززت رأسي، وأنا أقول: «مسألة وراثية في العائلة، هل تقصدين ذلك؟.. لكني أشك في الأمر، حيث إن الكثير من الناس ربما مروا

بما مررت به»

«وهل لديك فكرة لماذا تمر بذلك؟ أليس هناك دائمًا سبب لكل شيء؟»

هززت كتفي مستهجنًا

فابتسمت: «حسنًا، آمل أن يكون الأمر قد انتهى الآن؟».

«أوه نعم».

«هذا جيد، لأنه بالنسبة لهوجو أيضًا... لم يعد هنالك شيء على الإطلاق. فهو قوي جدًّا وسليم العقل الآن».

قدنا السيارة عائدين إلى المنزل عبر الطرق المظلمة، وتحدثنا قليلًا عن الموسيقى والكتب والمزيد من الحديث عن كاترينا وتطلعها لدخول جامعة كامبريدج لدراسة الطب، وعندما فعلنا ذلك شعرت بإحساس غريب بالخفة والسعادة. لقد أوضحت لي قصة الشبح التي أخبرني بها أخي الكثير من الأمور، فإنه من الطبيعي أن يظن الناس أن الطفل الصغير الذي غرق يعود إلى نفس المكان كي يكون مع أطفال آخرين، وكنت أعرف أن الناس قد يلتقطون صورًا للأشباح. حتى إنني رأيت واحدة من قبل، والتي كانت صورة للمدرسة بأكملها مع شبح المدير في نهاية الصف الخلفي وعلى الرغم من أنني أعترف أنني اعتقدت دائمًا في كونها مزيفة نوعًا ما. لكن تلك الصور المزيفة التي أصبحت سهلة الآن باستخدام الكاميرات الرقمية لم يكن من السهل إنجازها في الماضي، وبقدر ما أتذكر أن الصبي لم يبدُ بأي شكل من الأشكال مثل الأشباح في الصورة التي عرضتها علي المرأة العجوز. لأنه إن كان كذلك فمن المؤكد أنني لم أكن لأعتبره صبيًّا ثالثًا أو صديقنا المجهول.

كنت أفكر في اليد الصغيرة أثناء قيادتي للسيارة، والتي آمنت الآن أنها تخص الصبي الغارق. فلقد ذهبت إلى داخل ذلك المكان، وقد أمسك بي. هل كان يعثر عليّ في كل مرة اقتربت فيها من الماء وخاصة بالقرب من البرك؟ بدا الأمر كذلك، ولكن لماذا حثني على المضي قدمًا؟ لماذا شعرت بمثل هذا الخوف مما قد يحدث؟

شعرت برجفة، إذ تبدو مسألة أن لديه إرادة وقوة شبحية لدرجة أنه يمكن أن يحثني على السقوط في الماء والغرق والانضمام إليه غير قابلة للتصديق، ولكن ما هو التفسير الآخر لذلك؟

توجهنا إلى المدينة جنوبًا عبر مباني المدرسة الرئيسية نحو المنزل.

حسنًا، لقد انتهى الأمر. فقد تلاشت القوة الشبحية واللغز الوحيد الذي بقي هو زيارتي للبيت الأبيض عندما قابلت المرأة العجوز. هل كانت شبحًا أيضًا؟ لا، لقد كانت حقيقية على الرغم من أنها غريبة، ولكن فكرة البقاء بمفردها في ذلك المكان شبه المهجور من شأنها أن تدفع أي شخص إلى الجنون. كان الطفل الغارق هو حفيدها، وربما كان يطاردها أيضًا، ربما شعرت بيده الصغيرة، ربما استحوذ عليها في تلك الحدائق المتداخلة، إلى المكان الذي كانت فيه بركة المياه والتي كانت مجرد حلقة خيالية في الأرض. يا لها من امرأة مسكينة. لقد كانت تحتاج إلى المساعدة والرعاية والرفقة، لكن العالم غالبًا ما يلفظ أشخاصًا مضطربين قليلًا مثلها، هؤلاء من يعيشون في عالم الأحلام ويتشبثون بالماضي ويبكون على أطلاله، من المحتمل أنها ستموت هناك وحدها جائعة أو مريضة أو إثر حادث ما، تساءلت عما إذا كان بإمكاني العودة والتحدث معها مرة أخرى

وإقناعها بقبول المساعدة حتى ولو بترك ذلك المكان الكئيب المروع الذي ارتبطت به حياتها الماضية، والذي لم يكن مؤهلًا لتنتهي فيه حياة امرأة جميلة وناجحة وحكيمة. لقد عقدت العزم على القيام بذلك. وربما كانت في ذهني فكرة أنني سأسألها بلطف ولباقة عن حفيدها، وما إذا كانت الصورة تخصه بالفعل، والتي قد تكون بعد سنوات قليلة من وفاته. وإذا كانت تزورها اليد الصغيرة.

على الرغم من أنها غادرت الآن وصرت حرًّا، ولا أشعر بالخوف تمامًا، لكنني لم أستطع بعد أن أنسى الشعور بأنه يمسك بي أو بتأثير قوته علي، وعندما وصلنا بدأت أتساءل عما إذا كان بإمكاني القيام بالرحلة إلى ساسكس مرة أخرى.

على أي حال، توقعت أن أجلب أخبارًا للسير إدجار ميريمان عن الكتب المقدسة الخاصة به، على الرغم من أنني قد أضطر إلى القيام برحلة أخرى إلى نيويورك أولًا. والتي تمتلئ بالناس على نحو رائع في الخريف، حيث بداية الموسم في دور المزادات والكثير من المسرحيات الجديدة والكثير أيضًا من الحفلات الجيدة كما أن المطاعم كلها تكون ممتلئة لكن الطقس لا يزال مناسبًا للمشي. مما جعلني أشعر بدفعة صغيرة من الحماسة حيال ذلك، فقد كان علي أن أتذكر ذلك الإحساس بالبهجة والترقب لفكرة نيويورك باعتبارها آخر لحظة ممتعة خالية من الهموم والشعور بالذنب. أليست هناك دائمًا تلك اللحظات التي تأتيك قبل وقوع الضربة التي تغير الأشياء إلى الأبد؟

دلفت إلى المنزل خلف بينيديكت والتي كانت تقول إنه من الغريب أن الأنوار لم تكن مضاءة، وأنه من المحتمل أن هوجو ذهب ليحتسي مشروبًا مع لاعبي كرة القدم على الرغم من أنه لم

يبق في العادة بعد المباراة. لقد كان يومًا خريفيًّا لطيفًا، ولكن الجو كان باردًا، بينما قطعنا الطريق عائدين، كما لو كان هناك صقيع في تلك الليلة حتى شعرت الآن أن المنزل نفسه كان باردًا بشكل غير عادي.

«ماذا... » سمعت صوت بينيديكت تقول في تلعثم وهي تدخل غرفة الجلوس: «أوه لا... هل كان هناك لص هنا؟»

فذهبت بسرعة إلى الغرفة، حيث كانت النوافذ الفرنسية المؤدية إلى الحديقة مفتوحة على مصراعيها، وكانت بينديكت تشعل المصابيح، ولكن عندما نظرنا حولنا كان من الواضح أنه لم يتم تحريك أو أخذ أي شيء حسب ما رأينا.

قلت لها: «ابق هنا، سوف أتحقق من الأمر».

وأخذت جولة في المنزل بأكمله بسرعة، ولكن كل غرفة كانت كالعادة أبوابها مغلقة، منظمة وفارغة.

«آدم؟» بدا صوتها غريبًا.

«لا يوجد شيء ولا أحد هناك. كل شيء على ما يرام. ربما نسيت إغلاقها عندما خرجنا».

«لم أفتحها. لم يفتحها أحد».

«ربما فعل هوجو؟»

«هوجو ذهب إلى المدرسة».

«حسنًا، ربما عاد بعدما نسي أدواته أو شيء كهذا».

«لقد أخذ كل أدواته ولماذا سيفتح هذه الأبواب كلها؟»

«سيخبرنا عندما يعود، فأنا لا أستطيع التفكير في أي تفسير آخر، هل يمكنك أنت؟»

اعتلى وجهها نظرة خوف أو قلق فأخذتها إلى المطبخ وفتحت زجاجة نبيذ أحمر وسكبت لنا كأسًا كبيرًا.

«ماذا يمكنني أن أفعل للمساعدة في العشاء؟ هل أقشر البطاطا؟ ها هنالك ما أخرجه من الفريزر؟

كانت بينيديكت دائمًا منظمة بشكل جيد، وكانت تخطط لكل شيء حتى لو كان الوقت الذي سنأكل فيه غير محدد.. وأجابتني على سؤالي بنعم، وكان يمكنني أن أستشعر من تعبير وجهها أنها تشعر بالقلق.

«اغسل بعض البطاطا وضعها في الفرن إضافة إلى طاجن السجق. أظن ذلك فقط...».

ذهبت إليها ووضعت يدي على كتفها قائلًا: «لم تتعرضوا للسطو، لم يكن هنالك أحد هنا. لا تقلقي سوف يعود هوجو في أي دقيقة. يمكنه التحقق من الأمر أيضًا إذا أردت. لكن لا أحد هنا».

قالت: «لا».

انتهينا من إعداد العشاء، ثم أخذنا مشروباتنا إلى غرفة الجلوس. كنت قد أغلقت النوافذ وسحبت الستائر الثقيلة. وأشعلت بينديكت النيران ثم تحدثنا قليلًا، وجلست أقرأ بعض الأوراق، بينما عادت هي لتفقد الفرن، حيث كان كل شيء يسير كالمعتاد.. حتى رن الهاتف.

«آدم»؟

لم تبدُ قلقة بعد ذلك، بل كانت في حيرة من أمرها وهي تقول: «كان هذا رجلًا من المدرسة. إنهم يريدون هوجو».

«نعم؟»

«جوردون نيويت».

لم أفهم ما قالت فاستكملت: «رئيس القسم الرياضي هو من أراد هوجو، فقلت له: إنه ربما لا يزال يحتسي مشروبًا مع الفريق. لكنه قال: إن هوجو لم يقم بتحكيم أي مباراة بعد الظهر. كانت هناك مباراة واحدة فقط، والتي كانت خارج ملعبنا حيث لم يكن هناك».

قالتها، ثم دخلت إلى ركن أبعد في الغرفة، وجلست فجأة: «لم يكن يحكم أي مباراة».

قالتها مرة أخرى بصوت فاتر، لكن تعابيرها كانت لا تزال مصابة بالحيرة كما لو كانت تحاول فهم ما سمعته.

قد يبدو من غير المعقول أن أقول إنني كنت أعرف، في تلك اللحظة بالذات كنت أعرف كل شيء، وكأنه قد تم إخباري به كاملًا بكل التفاصيل، كنت أعرف، ولكن بعد ذلك اندثر كل ما كنت أعرفه إلى شظايا من جديد وسمعت نفسي أقول: إن رئيس القسم قد أخطأ بالتأكيد، وربما تبادل هوجو الأدوار مع شخص ما دون أن يقول ذلك، أو أنه ربما ذهب إلى مكان آخر وغير روتينه اليومي، لكن ألم يكن يمتلك الوقت لإخبارنا أن... سمعت صوتي يثرثر بلا فائدة، ورأيت بينيديكت تراقب وجهي، كما لو كانت تقرأ ما حدث بالفعل مع هوجو، ثم سادت لحظة صمت طويلة ورهيبة قبل أن أنهض قائلًا: «أعتقد أنني يجب أن اتصل بالشرطة».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الحادي والعشرون

ليس هنالك الكثير للحديث عنه، فقد تم العثور على جثة هوجو في باكورة صباح اليوم التالي بطريقة ما داخل النهر. لم يكن لديه أي إصابات، وأثبت تشريح الجثة أنه مات غرقًا، ولكن لم يكن هناك أي سبب طبيعي لسقوطه في الماء بعدما أصيب بسكتة دماغية مفاجئة أو نوبة قلبية أثناء السير بالقرب من الحافة. لم تكن هناك ملاحظة مكتوبة في المنزل لزوجته ولم يكن هناك أي تفسير لاضطراره للكذب بشأن الخروج في مباراة كرة القدم. علمنا أنه كان بالمدرسة صباح السبت كالعادة، وكما قال إنه سيكون كذلك. وفي حوالي الثانية عشرة وأربعين دقيقة شاهده عدة أشخاص يسير في الشارع الرئيسي في اتجاه المنزل. أما بعد ذلك فلم يره أحد على الإطلاق. لأنه في ذلك الوقت من العام يكون طريق النهر هادئًا رغم أنه يظل هنالك بعض ممن يقومون بتنزيه الكلاب أو ممارسة رياضة الجري، لكن ذلك لم يحدث بعد ظهر ذلك اليوم.

تساءلت بنديكت مرارًا وتكرارًا عما لو كان قد تعثر أو انزلق ببساطة لكن الطريق كان جافًّا، حيث لم تتساقط الأمطار منذ أسابيع، لكنه كان من الوارد أن يكون قد تعثر على جذر شجرة.

كان وقتًا مروعًا، فقد ظللت حتى وصلت كاترينا إلى المنزل من كامبريدج، وفي صباح يوم الإثنين. وكان علي أن آخذ بينديكت للتعرف على جثة هوجو بشكل رسمي، فتوجهنا إلى المستشفى في صمت. لقد كانت شجاعة ومتماسكة للغاية ومصممة على عدم الانهيار إلى الآن لكنها قالت: إنها كانت تخشى أن تنهار عندما تضطر إلى رؤيته. ولهذا السبب أرادتني معها.

لقد كنت مصعوقًا مثلها تمامًا، ولكني مررت بذلك الموقف مرتين من قبل بالتعرف على جثث الموتى بما في ذلك جثة والدنا، لذلك لم أشعر بأي نوع من الخوف في ذلك الصباح، بل حزن كبير فحسب.

لكني عندما نظرت إلى جسد أخي البارد الساكن هناك ابتلعتني موجة كبيرة من الإدراك، ومن ثم الشعور بالرعب. فقد كان وجهه خاليًا من أي تعبير كما هو الحال دائمًا في نهاية المطاف، فلا يعبر أبدًا عما حدث في لحظة الموت، لا شيء سوى تعبير النوم الأبدي. ثم نظرت إلى يديه. كانت اليد اليسرى مسترخية بشكل طبيعي في وضع مريح على الملاءة. لكن يده اليمنى لم تكن في وضع استرخاء، فقد كانت شبه مطوية كما لو أنها تمسك بشيء في إحكام.

عرفت معنى ذلك بالطبع، ثم فهمت كل شيء، فهمت أن اليد الصغيرة التي تخلت عن يدي للمرة الأخيرة لم تستسلم، لم يرحل الصبي، لكنه بعد أن فشل معي انتقل إلى هوجو وبدأ في سحب يده، ثم قاده ممسكًا به في قوة نحو أقرب نهر.. أنا لم أستسلم لها فقد أنقذت نفسي أو تم إنقاذي، على الرغم من أنني لم أعرف حينها وما زلت لا أعرف كيف تم ذلك؟ لم أستسلم لليد الصغيرة لكن شقيقي فعل ومات غرقًا مثل الصبي.

لم أخبر بينديكت أيًا من هذا، فقد غادرنا المستشفى في صمت، وفي وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم عادت كاترينا إلى المنزل.. لقد تركتهما معًا لأنني شعرت أن هذا هو ما تريدانه وتحتاجانه، لكنهما لن يصرحا به أبدًا، إضافة إلى رغبتي الشديدة في الابتعاد، سأعود للجنازة بالطبع، لكن ذلك لن يحدث إلا بعد عشرة أيام.

انطلقت بسرعة بعيدًا عن المدينة والنهر راغبًا في تركهم خلفي بشدة، لقد شعرت بالذنب لأنني نجوت وبالهلع مما كنت أعلم أنه حدث لهوجو، ولعدم وجود أي دليل على عكس ذلك، فإن الطبيب الشرعي سيسجل تقريرًا بالوفاة العرضية. كان علي أن أتعايش مع كل ما أعرفه وأتساءل عما إذا كان هنالك العديد من الناس المطاردين بنفس الطريقة، أولئك الذين زاروا حديقة البيت الأبيض ذات مرة وشعروا بلمسة اليد الصغيرة. فبالتأكيد لم أكن الأول لكني دعوت أن يكون هوجو هو الأخير، وأن شبح الصبي الغارق البائس يمكن أن يرقد بسلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني والعشرون

ظننت أن الأمر انتهى إلى هذا الحد، وأنه لن يكون هناك المزيد لمعرفته. ولكن ها هو المزيد يأتي، معلومة أخرى وصلت إليّ والتي لا يمكنني أن أعيدها لصاحبها أبدًا، شيء آخر أسوأ بكثير يجب أن أتعايش معه؛ لأنه لا يوجد شيء على الإطلاق يمكنني أن أفعله حياله.

فعندما عدت إلى المنزل وجدت رسالة. لقد أرسلت في صباح يوم السبت وكانت مكتوبة بيد أخي ولجزء من الثانية عندما نظرت إلى الكتابة نسيت أنه ميت وأصابتني الحيرة من فكرة أن يكتب لي على الورق بالقلم والحبر وليس عن طريق اتصال هاتفيّ أو إرسال رسالة سريعة عبر البريد الإلكتروني. لكني بعد ذلك تداركت الأمر بالطبع، فارتجفت يدي عندما فتحت الظرف، بينما كنت جالسًا على مكتبي بجانب النافذة في وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم تحت السحب الكثيفة.

آدم

عليك أن تعرف هذا.. فأنا لم أتمكن أبدًا من إخبارك على الرغم من توافر الوقت في الأيام والأسابيع الماضية عندما كنت قريبًا من الاعتراف إليك. لكني في النهاية لم أتمكن، ربما أنك على علم بأن هناك ما يجب أن أقوله لك، وربما لا. لكن الآن، وبعدما قررت أنني لم أعد أستطيع التعايش مع الأمر، فأرى ضرورة إخبارك، وتذكر من فضلك أننا كنا أطفالًا.

لقد كنت طفلًا، في الحادية عشرة من العمر لا يزال المرء طفلًا كما أقول لنفسي. إن ذاك الصبي قد غرق لأنني دفعته إلى تلك البركة، حيث لم يكن هناك أي شخص آخر للحظة. لم يرَ أحد

ما حدث، وقد جئت أنت لتعثر عليّ حينها فأمسكت يدك وسحبتك بعيدًا وصعدنا الدرج، وذهبنا سيرًا عبر المدخل المزين بالورود بين ذلك السياج المرتفع الذي يطاردني في كوابيسي منذ ذلك الحين. لم يعلم أحد، فقد كان الوقت متأخرًا بعد الظهر، وكان الناس يغادرون الحدائق. وكنا آخر من غادر منهم. حيث سرت بك عبر العشب حتى وجدنا أمي ثم غادرنا أيضًا.

لم يحدث شيء منذ عدة سنوات. فقد أخفيت الأمر في قرارة نفسي كما يتعامل الناس مع مثل هذه الأسرار الرهيبة. لم يحدث شيء حتى لحظة انهياري التي بدأت فجأة، وربما عن طريق الصدفة تقريبًا، بعد أن قرأت قصة في الصحيفة عن طفل غرق في بركة مماثلة، حيث اختبرت نفس الشعور الذي عانيت منه، تلك الرغبة في إلقاء نفسي في الماء. يبدو أن الاختلاف الوحيد هو أنني لم أضطر إلى تحمل قبضة اليد الصغيرة كما فعلت أنت، حتى ابتعدت اليد عنك أو ربما ينبغي أن أقول: «يئست منك» وجاءت إلي منذ أسابيع قليلة، عرفت حينها أنه يجب ألا أكون قادرًا على مقاومتها، وأنه علي أن أفعل ما تريد، أن أذهب معها، لابد أن أفعل ذلك بالطبع، فقد كانت غلطتي. أنا مذنب. أنت لم تفعل شيئًا. أنت لا تعرف شيئًا.. وأنا آسف على هذا، آسف على ما أخبرك به، وعلى تركي لكم جميعًا، على إخضاع عائلتي لما أعرف أنه سيكون ألمًا كبيرًا. وأطلب منك شيئًا واحدًا من فضلك. أتوسل إليك ألا تخبر بنديكيت أو كاترينا أبدًا مهما كنت تريد أن تخف العبء عن نفسك، سيكون لديهم ما يكفي لتحمله. لذا أرجو منك الاحتفاظ بهذا السر الأخير بيننا.

إنك تقرأ هذا ونحن نعلم أنني دفعت ثمن أخطائي، وليكن ذلك كافيًا يا إلهي. هذه هي نهاية كل شيء. فأنا والشبح الصغير نرقد

الآن في سلام.

آخر يد ستمسك بها تلك اليد الصغيرة هي يدي.

مع حبي

هوجو

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

Notes

[←1]

(1) فيرجينيا وولف ١٨٨٢ - ١٩٤١ ، كاتبة إنجليزية من أهم رواد الأدب الحديث في القرن العشرين، ومن أشهر أعمالها رواية «السيدة دالواي».

[←2]

(2) زنبقة الماء: فصيلة من النباتات تعيش في المسطحات المائية، بحيث تكون جذورها مثبتة في التربة، وتطفو أوراقها وأزهارها فوق سطح الماء.

[←3]

(3) نبات الهليون: نوع من النباتات المعمرة المزهرة، والتي تتبع الفصيلة الزنبقية.

[←4]
(4) جيلبرت من هويلاند: رئيس الدير السيسترسي في لينكولنشاير في القرن الثاني عشر، وتتلخص أعماله في رسائل روحية موجزة وبعض الخطب.

[←5]

(5) مكتبة دوك همفري: أقدم غرفة قراءة في مكتبة بوديان، جامعة أوكسفورد، والتي تحتوي على مجموعات من الخرائط والموسيقى والمخطوطات الغربية واللاهوت والفن وسميت على اسم همفري لانكاستر (دوق غلوستر الأول)، الابن الأصغر لهنري الرابع ملك إنجلترا.

[←6]

(6) الحلقة الخيالية: هي مجموعة أحجار وأحيانًا زهور تسمى أيضًا باسم دائرة الجنيات، وهي حلقة أو قوس من الفطر توجد بشكل رئيسي في المناطق الحجرية، ولكنها تظهر أيضًا في الأراضي العشبية أو المراعي.

[←7]

(7) الرواية المقصودة هي "The Turn of the Screw "... و هنري جيمس: (١٨٤٣ - ١٩١٦) هو مؤلف بريطاني من أصل أمريكي، مؤسس وقائد مدرسة الواقعية في الأدب الخيالي، ومن أشهر أعماله الأدبية أيضًا رواية The Portrait of a Lady.